المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة طيبة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الفخر والفروسية في شعر أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) دراسة موضوعية فنية

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير
(الدراسات الأدبية والنقدية)

إعداد

حسين بن هادي أحمد العبدلي

الرقم الجامعي: ٢٩٤٠١٤١

(إشراف)

الدكتور / إبراهيم سعد قنديل

أستاذ الأدب والنقد المشارك بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة

١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ فاطر: ٢

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي المتواضع

إلى روح والدي ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .....

وإلى أمي الغالية ،متعها الله بالصحة وألبسها ثوب العافية .....

وإلى إخوتي الأعزاء .....

وإلى زوجتي الوفية .....

وإلى أبنائي رياحين فؤادي .....

وإلى أصدقائي الفضلاء، وأقاربي الكرام .....

وإلى كل محبي تراث هذه الأمة .....

قرار توصية اللجنة

☐ **قُبول الرسالة والتوصية بمنح الدرجة.**

☐ **قُبول الرسالة مع إجراء بعض التعديلات، دون مناقشتها مرة أخرى[١].**

☐ **استكمال أوجه النقص في الرسالة، وإعادة مناقشتها[٢].**

☐ **عدم قبول الرسالة.**

تعقيبات أخرى:

التوقيعات[*]

مقرِّر اللجنة	**عضو**	**عضو**	**عضو**
			عضو
الاسم:	.....	.....	.....
التوقيع:	.....	.....	.....

---

(١) في حال الأخذ بهذه التوصية يُفَوَّض أحد أعضاء لجنة المناقشة بالتوصية بمنح الدرجة بعد التأكد من الأخذ بهذه التعديلات في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من تاريخ المناقشة. ولمجلس الجامعة، الاستثناء من ذلك بناء على توصية لجنة الحكم ومجلس عمادة الدراسات العليا.

(٢) في حال الأخذ بهذه التوصية، يُحدِّد مجلس عمادة الدراسات العليا بناءً على توصية مجلس القسم المختص موعد إعادة المناقشة، على أن لا يزيد ذلك على سنة واحدة من تاريخ المناقشة الأولى.

(*) في حال الاختلاف في الرأي، لكل عضو من أعضاء لجنة الحكم على الرسالة، حق تقديم ما له من مرئيات مغايرة أو تحفظات، في تقرير مُفصَّل إلى كل من رئيس القسم، وعميد الدراسات العليا، في مدة لا تتجاوز أسبوعين من تاريخ المناقشة.

شكر وتقدير

الشكر لله أولاً على أن أعانني ووفقني لإتمام هذا البحث ،كما إنني أتقدم بالشكر وعظيم الامتنان لمشرف هذه الرسالة أستاذي الدكتور/إبراهيم بن سعد قنديل، راعي هذه الرسالة منذ أن كان فكرة إلى أن أينع وآتى أُكله؛ ولما أولاني من الاهتمام والتشجيع وما قام به من التصويب والتصحيح والإرشاد، فجزاه الله عني وعن مثلي خير الجزاء.

كما أقدم شكري إلى الدكتور/ عبد الرحمن رجاء الله السلمي الذي قدم لي نصائحه القيمة وزودني بكثير من المراجع والمصادر فله مني الشكر والدعاء.

وأقدم الشكر والتقدير لأساتذتي الذين نهلت من علمهم واستفدت منهم كثيراً في مرحلة الماجستير وأسأل الله أن يبارك في علمهم ويمدهم بالصحة والعافية، آمين.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١-٣
التمهيد	٤
الحياة السياسية	٥-١٢
الحياة الاجتماعية	١٢-١٤
الحياة الثقافية	١٥-١٩
حياة أسامة بن منقذ ونسبه ومولده	٢٠-٢١
نشأته	٢١-٢٢
تنقلاته	٢٣-٢٩
وفاته	٢٩
آثاره	٢٩-٣٣
ثقافته وشاعريته	٣٤-٣٨
الفخر: ماهيته ومضامينه	٣٩-٤٧
الدراسة الموضوعية	٤٨
الفصل الأول: فخره بفروسيته الحربية	٤٩-٦٣
الفصل الثاني: فخره بسجاياه وخصاله الحميدة	٦٤-٧٣
الفصل الثالث: فخره بقبيلته ونسبه	٧٤-٨١
الدراسة الفنية	٨٢
الفصل الأول: الألفاظ والتراكيب	٨٣-٩١
الفصل الثاني: الأفكار والمعاني	٩٢-١٠٥
الفصل الثالث: العاطفة	١٠٦-١١٥
الفصل الرابع: الصورة الفنية	١١٦-١٢٢
الفصل الخامس: الموسيقى	١٢٣-١٣١
الخاتمة	١٣٢-١٣٤
فهرس المصادر والمراجع	١٣٥-١٤٣

(الفخر والفروسية في شعر أسامة بن منقذ ت٥٨٤هـ)

(دراسة موضوعية فنية) **(المستخلص)**

إعداد/ حسين بن هادي أحمد العبدلي . **إشراف الدكتور/ إبراهيم قنديل**

تتناول هذه الدراسة الموضوعية الفنية الفخر والفروسية في شعر أسامة بن منقذ لتكشف مناحي فخره من خلال شعره، إذ يعد فارساً وأميراً وشاعراً ،ولتبين عن تجربته الإبداعية التي احتوت مادة خصبة وقد اعتمدت هذه الدراسة منهجاً تحليليا وصفياً يقوم على وصف شعره واستخلاص فخره ومعايشة نصوصه ومحاولة تحليلها تحليلاً أدبياً، وذلك بالتركيز على بعض جوانب الشكل والمضمون، وقد جاءت هذا الدراسة في مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة فالمقدمة اشتملت على أهداف البحث وأهميته ومناهجه والدراسات السابقة وأما التمهيد فاحتوى على ثلاثة مباحث: تحدث فيه في المبحث الأول عن عصر أسامة بن منقذ سياسياً واجتماعياً وثقافياً، والمبحث الثاني عن حياة أسامة بن منقذ وشاعريته والمبحث الثالث عن الفخر ماهيته ومضامينه، وجاء الباب الأول في ثلاثة فصول:في الفصل الأول تحدثت فيه عن فخره بفروسيته الحربية وفي الفصل الثاني كان الحديث فيه عن فخره بسجاياه وخصاله الحميدة، وفي الفصل الثالث:تحدثت فيه عن فخره بقبليته ونسبه، وأما الباب الثاني فكان في خمسة فصول:تحدثت في الفصل الأول فيه عن الألفاظ والتراكيب، وفي الفصل الثاني تحدثت فيه عن المعاني والأفكار وفي الفصل الثالث تحدثت فيه عن عاطفته وفي الفصل الرابع: تحدثت فيه عن الصورة الفنية والفصل الخامس تحدثت فيه عن الموسيقى ثم أوجزت النتائج في الخاتمة.

Boasting and horsemanship in Usama Bin Munqez's poetry (584H)
Objective artistic study

Prepared by/ Hussein Bin Hadi Ahmed Alabdulli
Supervised by: Dr. Ibrahim Saad Kandel

ABESTRACT

This objective artistic study dealt with boasting and horsemanship in Usama Bin Munqez's poetry for the sake of finding out aspects of boast through his poetry. Usama Bin Munqez is deemed a horseman, a prince and a poet. Moreover, this study attempts to unveil his creative experience that includes fertile material and concurrently counts on a descriptive and analytical approach that describes his poetry, extracts aspects of boast and provides a literary analysis for this poetry through focusing on some sides of form and contents. Furthermore, this study includes an introduction, preface, two chapters and a conclusion. On the one hand, the introduction includes research aims, research significance, research methodology and previous literature. On the other hand the preface includes three sections as following: the first section deals with the political, social and cultural dimensions of Usama Bin Munqez's age, the second section deals with Usama Bin Munqez's life and his poetics while the third section deals with boast essence and content. In addition, the first chapter falls in three sections as following: in the first sections I talked about the poet's boast of his military horsemanship, in the second section I talked about the poet's features and good characteristics while in the third one I talked about the poet's boast of his tribe and lineage. The second chapter falls in five sections as following: in the first sections I talked about vocabulary and structures, in the second section I talked about some meanings and thoughts, in the third section I talked about Usama's emotion, in the fourth section I talked about his artistic deficiencies while in the fifth one I talked about the imagery. Then I mentioned the findings in brief in the conclusion, where it became evident to me that the poet could introduce us through his poetry into his boasting and his creative experience. Furthermore, his poetry expressed his life and character, add to that it has become clear to us that the how close the poet is to his heritage and to the poets of his age. Further more, the poet has managed to convey those emotions and sensations in potent words, wonderful meanings, feverish emotion, expressive imagery and moving music. Finally all the aforesaid definitely refers to his authenticity and creation.

متن البحث(فصول البحث)

الفصل	الصفحة
الباب الأول (الدراسة الموضوعية)	٤٨
الفصل الأول : فخره بفروسيته الحربية	٤٩-٦٣
الفصل الثاني : فخره بسجاياه وخصاله الحميدة	٦٤-٧٣
الفصل الثالث : فخره بقبيلته ونسبه	٧٤-٨١
الباب الثاني (الدراسة الفنية)	٨٢
الفصل الأول : الألفاظ والتراكيب	٨٣-٩١
الفصل الثاني : الأفكار والمعاني	٩٢-١٠٥
الفصل الثالث : العاطفة	١٠٦-١١٥
الفصل الرابع : الصورة الفنية	١١٦-١٢٢
الفصل الخامس : الموسيقى	١٢٣-١٣١

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد.

فيأتي هذا البحث وهو عبارة عن (الفخر والفروسية في شعر أسامة بن منقذ) وهو عبارة عن دراسة موضوعية وصفية تجلي عن فخر وفروسية الشاعر من خلال شعره، فقد كان المصدر الأول في الدراسة ديوان الشاعر ومؤلفاته التي احتوت على أبيات افتخر بها، كما كان للأحداث التي عايشها أثرٌ واضحٌ في اعتزازه بنفسه وبقبيلته وبما يحمله من قيم وأخلاق، وكان ذلك الشق الأول من الدراسة أما الشق الثاني فكان ينصب على الجانب التحليلي الوصفي لتلك الأبيات التي تنم عن فخره وبيان خصائصها، سواء أكان من ناحية الشكل أم من ناحية المضمون، أما عن خطة الدراسة فقد جاءت في مقدمة، وتمهيد، وبابين، جاء الأول في ثلاثة فصول وجاء الثاني في خمسة فصول. وجاءت المقدمة متضمنة أهمية البحث ومناهجه وأهدافه والدراسات السابقة وأما التمهيد فكان في ثلاثة مباحث:المبحث الأول تحدثت فيه عن عصر أسامة بن منقذ من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية وقد كان لذلك العصر بكل متغيراته تأثيرٌ على شاعرنا.

أما المبحث الثاني:فكان عن حياة أسامة وثقافته وشاعريته، وقد كانت حياته مليئة بالأحداث العظمى التي أثرت في ثقافته وشاعريته، أما المبحث الثالث:فكان عن ماهية الفخر ومضامينه فقد تحدثت فيه عن معنى الفخر في اللغة والاصطلاح وتحدثت عن تعريفه عند القدماء والمحدثين ثم تكلمت عن مضامينه التي منها قوة القبيلة وكثرة عددها، وكذلك الفخر بالقيم الأخلاقية كالكرم والشجاعة والفخر بالنفس والاعتزاز بها. أما في الدراسة الموضوعية التي تشكل الباب الأول فجاءت في ثلاثة فصول:جاء الفصل الأول عن فخر أسامة بن منقذ بفروسيته الحربية فقد كان أميراً فارساً خاض كثيراً من المعارك وبدأ مشاركته فيها منذ أن كان في الخامسة عشرة واستمر على ذلك إلى أن نيف على السبعين، وقد ذكر في أبياته أدواته الحربية التي كانت تسعفه وقت الشدائد، أما الفصل الثاني:فكان عن فخره بسجاياه وخصاله الحميدة فقد تمتع بصفات رائعة ولم يحمل ديوانه لهواً أو مجوناً، ومن تلك الصفات كرمه وحلمه وصبره ووفاؤه.. أما الفصل الثالث:فكان عن فخره بقبيلته ونسبه، فقد ظل يفتخر بقبيلته ويعدد مآثرهم في شعره حتى بعدما قلب له عمه ظهر المجن وأخرجه من

موطنه وعلى الرغم من ذلك فلم يزل أسامة يذكر فضائل قومه ويفتخر بهم، وقد زاد ذلك حينما قضت الزلزلة على أهله وموطنه. ثم كانت الدراسة الفنية التي تشكل الباب الثاني من هذه الدراسة وفيها خمسة فصول:تحدثت في الفصل الأول فيه عن الألفاظ والتراكيب في فخر أسامة وفروسيته فقد كانت ألفاظه ذات دلالات تفاخرية كما برزت فيها الألفاظ الحربية، وكانت سهلة واضحة. أما الفصل الثاني:فكان عن المعاني والأفكار، وقد اتسمت معانيه وأفكاره بالوضوح وعدم الغموض في أغلبها، وكانت عميقة بعيدة عن السطحية، وقد تأثر بشعراء عصره –ولكن ذلك لا ينفي شاعريته– أما في الفصل الثالث:فتحدثت فيه عن عاطفة شاعرنا وقد كانت صادقة لأنها تنبع من أحداث وأسباب جسام وقعت لشاعرنا، كما كانت عاطفة قوية معبرة .

أما الفصل الرابع:فكان عن الصور الفنية، وقد لجأ شاعرنا إلى الصورة السمعية والبصرية والذوقية وقد استمد تلك الصور من الحياة الحربية التي عاشها، وكانت صوره بعيدة عن التكلف والتعقيد. أما الفصل الخامس:فتحدثت فيه عن الموسيقى التي شكلت في فخر شاعرنا وفروسيته إيقاعاً رائعاً من خلال اتكائه على الوزن والقافية وهما يمثلان الموسيقى الخارجية، وأما الموسيقى الداخلية فكانت من خلال القيم الصوتية بين الكلمات والجمل داخل الأبيات ثم جاءت الخاتمة لتذكر أبرز نتائج البحث.

وبالله التوفيق

المقدمة:

الحمد لله الرحمن، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان وعلى آله وصحبه وسلم ما تعاقب الجديدان أما بعد :

فيعد الفخر من أبرز الأغراض الشعرية التي حفل بها الشعر العربي على امتداد عصوره ، وبين غرض الفخر وغرض المدح تشابه ، فكلاهما قائم على الإشادة بفضائل النفس وذكر مناقها ولكن المدح يتوجه به الشاعر إلى ممدوحه بينما الفخر ينصب على امتداح الشاعر لنفسه ، وهو ما يسمى بالفخر الذاتي أو الفردي ، وقد يتجاوز الفخر نطاق الذات ليفخر الشاعر بفضائل قومه ويطري أمجادهم وهو ما يسمى بالفخر الجماعي، وقد يجمع الشاعر بين الفخرين فيكون الفخر ذاتيا وجماعيا في آن واحد، وهو في جميع أحواله ملتصق أشد الالتصاق بشخصية الشاعر، وبواعث الفخر كثيرة منها الداخلي الصادر عن نفس طموح، ومنها الخارجي وهو الذي تثيره المكايد والعداوة والحرب والمعارك، ومعاني الفخر متعددة ومتنوعة ولعل من أبرزها الفخر بالشجاعة والبطولة والشرف والسؤدد والكرم والحِلْم والصبر، وحصافة الرأي والفصاحة والبيان، وقد يكون الفخر بالقبيلة ومنعتها وقوتها. وقد غلب على الفخر في العصر الجاهلي النزعة الفردية والقبلية وذلك بما أضرمته الحروب التي عاشتها القبائل فكان الفخر بنوعيه الفردي والجماعي، فقد كان الشاعر هو الناطق الإعلامي بلسان قومه والمظهر لفضل القبيلة، المبين لمآثرها، وما أكثر شعراء الفخر الذين حفل بهم هذا العصر وإن كان من أبرزهم الأعشى، وطرفة، وعنترة وعمرو بن كلثوم، ولما جاء الإسلام تراجع الفخر قليلا إلا ما حمل منه طابع الحديث عن القيم الخلقية والروحية بوحي الدين الجديد الذي أظل جوانب الحياة جميعاً، وما استعاد الفخر سابق مجده إلا في العصر الأُموي على أيدي شعراء النقائض وعدد من شعراء الخوارج، ومع إطلالة العصر العباسي ضعفت وتيرة الفخر الجماعي وبرز نوع من الفخر الذاتي الوجداني الذي يصور الشجاعة والإقدام والمعارك الحربية التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم. ومن الشعراء الذين تميزوا بالفخر والبطولة والشجاعة:أسامة بن منقذ، فقد جمع بين السيف والقلم إذ كان بطلا وفارسا وأميرا وشاعراً، وكان الباعث على اختيار هذا الموضوع هو الكشف عن مناحي فخره من خلال شعره، ورغبة الباحث في تجلية هذه القضية وإضافتها إلى تراثنا العربي الأصيل، وحينما قرأت شعر أسامة وجدت مادةً خصبةً جديرة بالدراسة والتحليل فاخترت أن يكون شعر هذا الشاعر المتصل بالفخر والحماسة موضوعاً لهذه الدراسة. أما المنهج

الذي أتبعته في هذه الدراسة فهو منهج وصفي تحليلي . وقد سبق هذا البحث بطائفة من الدراسات والبحوث لعل من أبرزها ما يلي:

١- دراسة الدكتور/ حسن عباس التي كانت بعنوان"أسامة بن منقذ حياته وشعره" وهي منشورة في عام ١٩٨١م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الأسكندرية

٢- دراسة أعدها أمجد ضيف الله حمد الصائغ وكانت بعنوان "أسامة بن منقذ دراسة أسلوبية" وقد قدمت لنيل درجة الماجستير في جامعة مؤتة، في عام ٢٠٠١م

٣- دراسة أعدتها رولا ناصر سليمان، والتي كانت بعنوان "شعر أسامة بن منقذ دلالاته وخصائصه الفنية" وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في جامعة دمشق في عام ٢٠٠٠م

٤- دراسة أعدتها مفيدة نجيب حمدان، كانت بعنوان "أسامة بن منقذ شاعراً"، وهي مقدمة لنيل درجة الماجستير في جامعة القديس يوسف ببيروت في عام ١٩٩٦م، تناولت الدراسة معلومات عن أسامة بن منقذ وعائلته ثم قامت بتجميع قصائد ديوانه المتفرقة وتحليل بعضها.

٥- دراسة الدكتور/ عبد الله بن إبراهيم يوسف الزهراني، كانت بعنوان "أسامة بن منقذ والتراث الشعري"، وهي من منشورات نادي الباحة الأدبي في عام ٢٠٠٠م وتقوم الدراسة على محاولة كشف أبعاد الذاكرة الشعرية عند أسامة بن منقذ، ومدى تأثره بالشعراء السابقين وشعراء عصره وتداخل نصوصه وتضميناته معهم.

وقد أفدت من هذه الدراسات كما حاولت الأخذ من كل مرجع أو مصدر تيسر لي السبيل إليه، واجتهدت برأيي ما أمكن، وكانت دراستي قائمة على الانتقاء، بعيدة عن الاستقصاء، وارتأيت أن الأهم يغني عن المهم، كما لا أجدني محتاجاً لذكر العقبات التي واجهتني في البحث فقد أعانني الله على تذليلها، وكانت الدراسة في تمهيد وبابين جاء الأول منهما في ثلاثة فصول وجاء ثانيهما في خمسة فصول جاء التمهيد في ثلاثة مباحث:كان المبحث الأول:عن عصر أسامة من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية. وجاء المبحث الثاني عن حياة أسامة وثقافته وشاعريته. وجاء المبحث الثالث:عن الفخر (ماهيته ومضامينه). ثم جاء الباب الأول عن الدراسة الموضوعية التي اشتملت على ثلاثة فصول:جاء الأول منها عن فخره بفروسيته الحربية حيث تحدثت فيه عن فخره بشجاعته وإقدامه وذكره لأدواته الحربية من خيل وسيف ورمح

وسهم. وجاء الفصل الثاني عن فخره بسجاياه وخصاله الحميدة وتحدثت فيه عن أخلاقه التي اتصف بها من كرم وحلم ووفاء وعزة وإباء... أما الفصل الثالث فكان عن فخره بقبيلته ونسبه وكان الحديث فيه عن ذكر مآثر قبيلته وصفاتهم السامية، والاعتزاز بالانتساب إليهم وتخليده لأمجادهم وأفعالهم. ثم بعد ذلك الدراسة الفنية التي تضمنت خمسة فصول في الفصل الأول تحدثت فيه عن الألفاظ والتراكيب، ووقفت فيها على خصائص ألفاظ وتراكيب أسامة وعلى معجمه الشعري. وتحدثت في الفصل الثاني عن المعاني والأفكار، من حيث الوضوح والغموض، والعمق والسطحية، والاتباع والإبداع. وجاء الفصل الثالث عن العاطفة وكان الحديث فيه عن عاطفة الشاعر من حيث الصدق والكذب وكذلك من حيث القوة والضعف. والفصل الرابع تحدثت فيه عن الصورة الفنية، ووقفت على صور الشاعر وخصائصها التي كانت قريبة من حياة الفروسية. والفصل الخامس تحدثت فيه عن الموسيقى، وتعرضت إلى موسيقاه الخارجية التي تمثلت في الوزن والقافية وحرف الروي. كما تحدثت فيه عن موسيقاه الداخلية التي اشتملت على القيم الصوتية بين الكلمات داخل أبياته الشعرية. ثم ختمت الدارسة وأشرت إلى أبرز النتائج التي أسفرت عنها ا ثم ذكرت المصادر والمراجع. وفي الختام الشكر ثم الشكر لله جل جلاله على منه وعونه وتيسيره وتوفيقه كما يطيب لي أن أتوجه بجزيل الشكر والعرفان إلى سعادة الدكتور/إبراهيم سعد قنديل المشرف على الرسالة الذي رعى البحث حتى استوى على سوقه، ودأب معي على قراءته ومتابعته وأفاض علي من آرائه السديدة وتوجيهاته القيمة فجزاه الله عني خير الجزاء وأمده بالصحة والعافية إنه سميع الدعاء. كما أتقدم بالشكر إلى الأستاذين الكريمين عضوي لجنة المناقشة وهما سعادة الأستاذ الدكتور : عدنان محمود عبيدات وسعادة الأستاذ الدكتور : مختار محمد محمود الغوث فلهما من الله الأجر الجزيل ومني الشكر والتقدير. كما أنني أشكر كل من أسدى إليّ نصحاً، أو قدم لي مساعدة برأي أو مشورة أو دعوة صادقة بظهر الغيب، فلهم مني جميعاً جزيل الشكر والتقدير. وبعد فأسأل الله أن يتمم عملي بالقبول وأن يعفو عن الزلل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث/ حسين هادي أحمد العبدلي

التمهيد

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عصر أسامة بن منقذ (حديث عن الحيوات: السياسية والاجتماعية، والثقافية).

المبحث الثاني:حياة أسامة بن منقذ، وشاعريته، وثقافته.

المبحث الثالث:الفخر (ماهيته ومضامينه)

المبحث الأول: عصر أسامة بن منقذ
حديث عن:(الحيوات:السياسية والاجتماعية، والثقافية)

أولا / الحياة السياسية:

عاش أسامة ستا وتسعين سنة هجرية (٤٨٨/ ١٠٩٥- ٥٨٤/ ١١٨٨) قضى معظم أيامه في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . وإذا عدنا إلى تاريخ الأدب العربي لنحدد زمان شاعرنا في الأعصر الأدبية، وإلى أيتها ينتمي، وجدنا أن مؤرخي الأدب العربي – الذين سنذكرهم فيما بعد – يختلفون في تقسيم تلك الأعصر، وفي تسميتها، ومن ضمنها ذلك العصر الذي عاشه أسامة . فنجد بروكلمان(١) يقسم الأدب العربي إلى مرحلتين:أ- أدب الأمة العربية ب – الأدب الإسلامي باللغة العربية، ويقسم هذا الأخير إلى خمسة أعصر ، ويضع أسامة بن منقذ فيما يسميه بعصر " الازدهار المتأخر للأدب" .

ونرى جرجي زيدان(٢) يقسم آداب اللغة العربية إلى ما قبل العصر الجاهلي، فالجاهلي وعصر الخلفاء الراشدين، والأمويين، ثم العصر العباسي، ويقسم هذا الأخير إلى أربعة عصور عباسية، ويدرس أسامة بن منقذ في العصر العباسي الرابع الممتد من دخول السلاجقة بغداد إلى دخول بغداد في حوزة المغول .

أما شوقي ضيف(٣) فإنه يقسم تاريخ الأدب العربي إلى عصر جاهلي وإسلامي وعباسي . ويقسم العباسي إلى أربعة عصور، ويدرس أسامة بن منقذ في العصر الرابع، ويسميه "عصر الدول والإمارات" من استيلاء البويهيِّين على بغداد إلى العصر الحديث، وقد أشار إلى بحث الأدب العربي في هذا العصر الرابع، وأن يؤرخ له في كل إقليم على حده فيجعل جزءاً لإيران والعراق، وجزءاً لمصر والشام والجزيرة العربية وجزءاً للأندلس وبلاد المغرب.

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٧٧م ، ١/ ٣٦-٣٨.

(٢)جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة ، مطبعة الهلال بمصر ، ١٩٣٣م، ١/١

(٣)شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات الشام) ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣م، ١/١٤-١٥

وأخيرا يقول عمر فروخ[١] إن تاريخ الأدب العربي مقسم إلى ثلاث حقب:أ- الأدب القديم، ب- المحدث، ج- الحديث. والأدب المحدث يمتد من قيام الدولة العباسية إلى مطلع القرن التاسع عشر . ويقسم العصر العباسي إلى ثلاث حقب : حقبة بغداد ، وحقبة الدويلات والحقبة السلجوقية وهي عصر أسامة بن منقذ.

وهكذا نرى أن كل واحد من دارسي الأدب العربي الأربعة وضع أسامة بن منقذ في إطار من الزمن مسمى معين كما يأتي:"عصر الأزدهار المتأخر " عند بروكلمان و"العصر العباسي الرابع " من دخول السلاجقة بغداد إلى دخول بغداد في حوزة المغول" عند زيدان ، " وعصر الدول والإمارات " عند شوقي ضيف ، والحقبة الثالثة من العصر العباسي وهي " الحقبة السلجوقية" عند فروخ .

وبالنظر في عصر أسامة بن منقذ من الناحية السياسية نجد أنه عصر عاصف بالمتغيرات التي أثرت على الأمة الإسلامية، فقبل ولادته بعامين تعرض الشرق الأوسط في أواخر القرن الحادي عشر لسلسلة من الحروب الدامية من قبل الغرب ، لا مثيل لها ، تلك هي الحروب الصليبية. أما دوافعها فيقول بعض الدارسين عنها:إنها الحماسة الدينية، ويرى آخرون أنها كانت للتوسع الاقتصادي [٢] . على أن نجاح الصليبين في أول الأمر لم يرجع إلى كثرة عددهم وإلى المساعدات التي تلقوها من الغرب ومن الدولة البيزنطية فحسب، بل إنه يرجع أيضا إلى تفرق كلمة المسلمين، ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن . وقد عرض أبو شامة في كتاب الروضتين – الذي يظفر من بين الكتب التاريخية في الحياة العلمية الحديثة بمكانة عظيمة تضعه في مقدمة مصادر الحروب الصليبية – صورة واضحة للجهود التي قام بها ثلاثة رجال هم:عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وكان مجهود كل منهم يؤدي إلى هدف نهائي واحد هو وحدة المسلمين في بلاد الشام ومصر في مواجهة الخطر الأجنبي، واسترداد المناطق المحتلة حتى فتح بيت المقدس، وقد ذكر أبو شامة في الروضتين:تنقلات الجيوش وتفصيلات المعارك وأوصاف الأسلحة والحصون والسفن الحربية وسطوات القتال، وكان

---

(١)عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٥ ، ١٩٨٩م ، ٢٧/١

(٢)سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا في العصور الوسطى التاريخ السياسي، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٤ ، ١٩٥٧م ، ٤٣٦/١

يستعين بالوثائق الحكومية أو بالإشعار لتسجيل المعارك[1]. في ظل هذه الظروف الصعبة والحملات الصليبية الغاشمة التي عاشتها الأمة الإسلامية كانت الخلافة العباسية تعاني من التفكك والضعف، بل بدأت كثير من مقاطعات الدولة العباسية بالانفصال والاستقلال، حيث انقسمت الدولة الإسلامية الكبرى إلى دويلات متعددة ، وكان لكل دولة منها أميرها أو ملكها المستقل بحكمها ، وإن كان ظاهر الأمر يشير إلى خلاف ذلك ، حيث يبدو أمراء هذه الدويلات تابعين للخليفة العباسي الذي لم يكن له خلال هذه الفترة إلا الاسم فقط . إذ كان يحرص خلفاء بني العباس آنذاك على المحافظة على طاعة الملوك والأمراء لهم ، وأن يكون تعيين هؤلاء الأمراء بأيديهم أيضا ، وأن تكون لهم الخطبة والسكة في البلاد والأطراف ، فباتت الخلافة العباسية في هذا العصر مركزا بلا سلطة . وتعدد الحكام هذا قد خلق اضطرابات سياسية كثيرة، فقد كان كل حاكم منهم يحاول توسيع نفوذه وبسط سيطرته على الأراضي المجاورة، مما أدى إلى نزاعات وحروب داخلية، رافقتها حروب خارجية مع الصليبين ، يضاف إلى ذلك وجود الخلافة الفاطمية في مصر، التي أسهمت في زيادة الاضطرابات واختلال التوازن السياسي، من خلال محاولاتها التوسعية وامتدادها نحو بلاد الشام خلال فترة قوتها .إن هذا التمزق السياسي ، وتعدد الحكام ، مضافا إليه تنقلات شاعرنا أسامة بن منقذ نجد فيه تشابها في الأوضاع السياسية في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الأمة الإسلامية . وقد ذكرنا آنفا أن البلاد الإسلامية تجزأت إلى دويلات ، وتميز الحكم في هذه الإمارات بسلطة عناصر غير عربية حكمت بلاد الشام في هذه الفترة ولم تبق سوى ثلاث إمارات عربية في بلاد الشام وهي إمارة شيزر لبني منقذ ، وإمارة طرابلس لبني عمار ، وإمارة حمص لابن ملاعب ، وحتى هذه الإمارات سرعان ما تقلصت واضمحل بعضها سريعا ، فانتقل حكمها لغير العرب أيضا . وهذه العناصر غير عربية لكنها إسلامية وقد بدأ وجودها عن طريق السلاجقة الذين انبثقت عنهم فئات أخرى كالأراتقة والزنكيين أو الأتابكة ثم الأيوبيين. فبعد استيلاء السلاجقة على دفة الحكم في العراق وخرسان، فكروا في الاستيلاء على الشام وكان ذلك على يد ألب أرسلان وابنه ملكشاه وذلك سنة ٤٧٤هـ حيث خضعت دمشق وحمص. وقد استطاع علي بن منقذ جد أسامة أن يستولي على حصن شيزر سنة ٤٧٤هـ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها

---

(١)أبو شامة عبدالرحمن المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين (النورانية والصلاحية)، تحقيق:محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، ١٩٥٦م، ١/ ١٤ -١٦

زلزلة شديدة سنة ٥٥٢هـ. وقد كانت تعد من أعمال حلب. وخلال هذه الفترة وما بعدها تناوب ولاة السلاجقة على بلاد الشام التي انقسمت إلى دولتين تمركزت إحداهما في حلب والثانية في دمشق. وقد شارك شاعرنا أسامة بن منقذ في أحداث ذلك العصر فكان مع عماد الدين زنكي وهو أحد أبطال دولة الأتابكة ورؤسائها، وكان شجاعا فارسا وقد أبدى براعة فائقة في حروبه ضد الصليبين ولاسيما بعد أن أصبح واليا على الموصل من قبل السلطان السلجوقي ، ففي سنة ٥٠٩هـ، نزل الصليبيون على أفامية فقام لملاقاتهم عماد الدين زنكي واجتمع بأهل شيزر وكان الأمير أسامة بن منقذ حاضرا في هذه المعركة مع والده، وقد أبلى المسلمون في هذه المعركة بلاء حسنا وتمكنوا من هزيمة الصليبين ، وبعد أن استقرت الأمور لعماد الدين في ولاية حلب اتجه نحو الشام. وقد ذاع صيت عماد الدين زنكي واشتهر بصلابته في مقاومة الصليبين، مما دفع الفارس أسامة بن منقذ إلى الالتحاق بجيشه ومشاركته في الحروب[١] . كما حضر أسامة بن منقذ مع عماد الدين زنكي حصار حصن الصَوَّر في ديار بكر وقد انتصر عماد الدين زنكي [٢] . ظل زنكي يتابع فتوحاته ويقاوم الصليبين ببسالة إلا أن قتل غيلة ، ولما توفي قسمت بلاده بين ولديه نور الدين الذي تولى سورية وسيف الدين الذي تولى حكم الموصل والجزيرة ، وقد سار نور الدين على نهج والده في محاربة الصليبين، وكان يتطلع أيضا إلى توحيد الشام وجعلها إمارة إسلامية واحدة، فحاول الاستيلاء على أهم مدنها وهي دمشق التي كانت تحت سيطرة البوريين، وقد تطلع نور الدين إلى هذه الوحدة بعدما استطاع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس احتلال عسقلان سنة ٥٤٨هـ، وأخذها من الفاطميين، يضاف إلى ذلك القلق الذي اعترى نور الدين بعد أن تعاون مجير الدين آبق ــ آخر الأتابكة البوريين – مع الصليبين، لذلك كله جهز نور الدين حملة كبيرة للتوجه إلى دمشق، واتجهت فعلاً سنة ٥٤٩هـ ثم لحق نور الدين بها، وتمكن من دخول دمشق وإنهاء الحكم في الدولة البورية وتوحيد بلاد الشام شمالها وجنوبها. وبعد توحيد الشام أرسل الملك الصالح نور الدين حملة عسكرية إلى مصر سنة ٥٤٩هـ بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي فحاربا وتمكنا من القضاء على الدولة الفاطمية في مصر، ثم تسلَّم

---

(١) عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، دمشق، المكتبة العباسية، ط٢، ١٩٧٢م ، ص٢٤٠.

(٢)أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق:قاسم السمرائي، الرياض ، دار الأصالة ، ط١ ، ١٩٧٤م، ص ١٧٤- ١٧٥.

شيركوه الوزارة في مصر سنة ٥٦٢هـ إلا أنه مات في السنة نفسها، فتولى الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين وبذلك استتب له الأمر في مصر، وبعد تولي صلاح الدين الأيوبي على مصر فكر في الاستيلاء على الشام لكن قوة نور الدين منعته من تحقيق ما تطمح إليه نفسه، فلما توفي نور الدين وتولى الحكم بعده ابنه إسماعيل الذي عرف بالضعف وعدم القدرة على مواجهة الصليبيين، حينذاك استغل صلاح الدين الفرصة فدخل دمشق سنة ٥٦٩هـ وأسس الدولة الأيوبية، ولم يتوقف صلاح الدين عن محاربة الصليبيين بعد أن وحد بلاد الشام ومصر فسار نحو طبرية وفتحها [١] ثم أمر أخاه العادل ليخرج من مصر ويفتح يافا، وفي ٢٣من ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ هاجم المسلمون الصليبيين في معركة حطين وانتصروا عليهم انتصارا باهرا وأعادوا بيت المقدس من قبضة النصارى ، وأقيمت الجمعة فيه، وظهر صلاح الدين أمام المسلمين في صورة البطل المجاهد ونال إعجاب المسلمين وتأييدهم وبخاصة الخليفة العباسي الناصر لدين الله، بعدها عاد صلاح الدين إلى الشام بعدما استتب له الحكم في مصر وواصل نهجه في الاصلاحات ودعا إليه شاعرنا الفارس الأمير أسامة بن منقذ وقربه منه ومنحه إقطاعا ومنزلاً، وكان يشاوره في جميع أموره وأمور دولته . أما عن الوضع السياسي في مصر فقد كان الأمر للدولة العباسية ثم آل بعد ذلك للدولة الفاطمية العبيدية الشيعية سنة ٢٩٦هـ على يد المهدي أبي محمد عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الذي دعا الناس إليه فاتبعوه فقويت شوكته في مصر ثم استوى على القيروان واتسعت رقعة دولته، وطالت مدته وتعاقب عليها الخلفاء الفاطميون حيث استمرت إلى سنة ٥٦٧هـ واتسعت حتى امتدت إلى ساحل بلاد الشام لكن مساحتها تقلصت وبدأت في الضعف بعد خروج السلاجقة في إيران سنة ٤٦٨هـ [٢] . وحتى لا أطيل في الحديث فسيكون الحديث منصبا على الوضع السياسي للدولة الفاطمية أثناء مقام شاعرنا أسامة بن منقذ فيها من سنة (٥٣٩هـ – ٥٤٩هـ). وصل أسامة إلى مصر سنة ٥٣٩هـ وكان في عهد الخليفة الحافظ لدين الله فاستقبله الخليفة الحافظ وأكرمه أحسن إكرام ، وقد مرت البلاد المصرية أثناء حكم الحافظ بأصعب الظروف وأحلك الليالي وعاصر أسامة

---

(١)ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: د. جمال الدين الشيَّال، مصر، دار إحياء التراث القديم، مطبعة وجامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٣م، ١٨٦/٢-١٨٨.

(٢)أحمد بن علي بن إسماعيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنيين الخامس والسادس، الشركة المتحدة العربية للطباعة والنشر ، ط١، ١٩٨٣م، ص١١١.

بن منقذ تلك الأحداث مرغما بعد أن قاده القدر إليها في هذه الفترة، حيث بدأت الاضطرابات بالخلاف الكبير الذي وقع بين الريحانية وهم عبيد الحافظ وبين الإسكندرية والفرحية ومعظمهم من جند مصر ، فاشتعلت نيران الفتن، وقتل جماعة من الطرفين، وقد شهد أسامة بن منقذ مقتل ألف رجل من عبيد الحافظ الذي كان مريضاً فلم يستطع الدفاع عن عبيده ثم مات سنة ٥٤٤هـ [١] . ثم تولى بعد الحافظ ابنه الظافر بالله (سنة٥٤٤هـ ومكث حتى ٥٥٠هـ) وكان عمره سبع عشرة سنة، وكان شاباً جميل الصورة ، حسن الهيئة ، وكان يميل إلى اللهو والطرب [٢] . وقد اضطربت أحوال مصر في عهده نتيجة للخلاف الذي نشب بين الملك العادل ابن السلار ونجم الدين بن مصال من أجل الوزارة ووقعت حرب بينهما انتصر فيها ابن السلار، واستولى فيها على الوزارة، وكان أسامة ممن وقفوا إلى جانبه وساندوه ، فقربه ابن السلار وأكرمه [٣]. شارك أسامة خلال إقامته في سياسة مصر الخارجية إضافة إلى المشاركة في السياسة الداخلية ، إذ أرسله الوزير ابن السلار إلى الملك العادل نور الدين زنكي في بلاد الشام ، ليطلب منه أن يحاصر طبرية ليشغل الصليبين عن مصر بعد أن اقتربوا من حدودها . فهب أهل مصر ومعهم أسامة بن منقذ في الدفاع وأقام أربعة أشهر في عسقلان ثم خرج مع الجنود وأغاروا على بيت جبريل ، ثم طلبه ابن السلار فعاد إلى مصر وبقي أخوه عز الدولة أبو الحسن علي بن مرشد بعسقلان حيث استشهد عندما خرج الجيش إلى غزة[٤] . ترك أسامة الحرب الخارجية ليجد نفسه أمام حرب داخلية جديدة، تجسدت بقيام فتنة كبيرة في مصر قتل فيها الوزير ابن السلار، كما قتل الخليفة الظافر بالله على يد عباس وابنه ، وقد كان الخليفة يدفع عباساً إلى قتل أبيه، إلا أنهما اتفقا عليه فقتلاه، ثم تظاهرا بالبراءة، فدخل الوزير ابن عباس دور الحرم وأخرج الأمير عيسى ابن الظافر وكان عمره ست سنين فأحضره بين يدي القاضي وولاه الخلافة واستمر معه الطربة والخوف حتى كبر ومات بها[٥] . وحدثت فتنة أخرى بين عباس وجند مصر، فاستنجدت النسوة بطلائع بن زريك الذي كان واليا على منية ابن

---

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٩.

(٢)الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق:محمد مصطفى، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٢، ١٩٨٢م، ٢٢٧/١ .

(٣)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٣٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٨-٤٠.

(٥) الحنفي، بدائع الزهور، تحقيق:محمد مصطفى، ٢٢٨/١-٢٢٩.

الخصيب، فجمع طلائع العساكر وجهز جيشه واتجه نحو مصر ، فهرب عباس من مصر وقرر الذهاب إلى البلاد الشامية ، وقد رافقه في رحلته أسامة بن منقذ وأهله، لكن الفرنج كانوا لهم بالمرصاد فقتلوا عباسا وابنه ونجا أسامة وأهله لكن أسامة خاف على أهله فأعادهم إلى مصر حيث أقاموا هناك وعاشوا حياة كريمة من قبل طلائع بن زريك الذي كان من الأصدقاء المقربين لأسامة، وعندما وصل أسامة إلى الشام راسل الملك الصالح ابن زريك ليرسل له أهله إلا أن طلائع بن زريك خشي عليهم من الإفرنج فلم يرسلهم وعرض على أسامة العودة إلى مصر ووعده بتسليم أسوان إليه، إلا أن أسامة لم يرغب بالعودة بعدما ذاق المر والعذاب فيها، ثم تمكن أهله من اللحاق به إلى دمشق بمساعدة ابن زريك والملك العادل نور الدين. أما الوزير ابن زريك فقد أمسك أمور الدولة بيد من حديد فأحسن سياسة البلاد وأحبه الناس. وهكذا أصبحت بلاد الشام ومصر تحت سيطرة صلاح الدين الأيوبي وتابعة للدولة العباسية .

أما عن الوضع السياسي بشيزر وما حولها فهو مشابه لوضع البلاد الإسلامية في تلك الفترة الزمنية فقد كانت الاضطرابات السياسية والحروب الداخلية والخارجية ممتدة إلى بعض الإمارات الصغيرة التي منها شيزر رغم استقلالها وقوة تحصينها. تعرضت شيزر إلى حرب خارجية في الأيام الأولى التي عاشها أسامة فيها ، فقد هاجمها خلف بن ملاعب صاحب حمص ، وأصيب في هذه المعركة عم أسامة أبو العساكر سلطان في عينه[١] كذلك نشبت حروب بين أهل شيزر وبين محمود بن قراجا صاحب حماة، فكان ينهب زرع ضياع شيزر ويحرقه[٢] . إن هذه الحروب والمناوشات لم تكن تسير على وتيرة واحدة، وإنما كان يرافقها بعض الأحيان صلح واتفاق ولاسيما عندما يشتد خطر العدو الصليبي.

ومن الحروب الداخلية ما وقع بين أهل شيزر والباطنية سنة ٥٠٧هـ حيث هجم الباطنية على الحصن رغبة في الاستيلاء على شيزر، فوقع قتال عظيم بين الطرفين، وجرح كثير من أهل شيزر[٣] . يضاف إلى ذلك النزاعات بين أهل شيزر وبين الصليبيين الذين تمكنوا في هذه الفترة من تأسيس أربع إمارات لهم في بلاد الشام هي: ١- إمارة الرها : ٤٩١هـ ، ٢- إمارة أنطاكية

---

(١)أسامة بن منقذ، الاعتبار ص٧٨.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨-٦٨.

(٣)المصدر السابق، ص ١٧-١٤٤-١٤٥

٤٩١، ٣- مملكة بيت المقدس:٤٩٢هـ، ٤- إمارة طرابلس ٥٠٣هـ[١]. ونظرا لقرب أنطاكية من شيزر فقد كانت معظم حروبها مع عسكر أنطاكية وقوادها الإفرنج ، بدءا بتانكرد الذي أغار على شيزر سنة ٤٩٢هـ ، وكذلك هاجمهم سنة ٥٠٢هـ [٢] مما دفع أهل شيزر لعقد صلح معه تخفيفا لوطأة حروبه وهجماته عليهم[٣] . وكان أعنف إغارة على أهل شيزر في سنة ٥٣٢هـ حيث نصب الصليبيون المجانيق أمام البلد فقتلوا أعدادا كبيرة من أهل شيزر [٤] .

ثانيا : الحياة الاجتماعية

كانت الدولة العباسية في القرنين الخامس والسادس تعاني الأمرَّين بسب ضعف الخلفاء وسيطرة الأمراء على الحكم ، مما أدى إلى اضطراب البلاد وافتقارها إلى الاستقرار والأمن ، وللعلاقة الوثيقة بين الجانب السياسي والجانب الاجتماعي لكل مجتمع ، فقد نجم عن اضطراب الوضع السياسي في هذا العصر اضطراب في الوضع الاجتماعي . وقد تحول المجتمع إلى طبقات:فهناك طبقة عليا، وطبقة وسطى، وطبقة دنيا، أما الطبقة العليا فتشمل الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة، وأصحاب الإقطاعات الواسعة، وكان الغنى والترف فاحشا جداً عند هذه الفئة من المجتمع، لدرجة أنَّ سلاطين السلاجقة كانوا يرشقون بدنانير الفضة والذهب في حفلات التتويج، إضافة إلى الموائد الفاخرة بألوان الطعام، مرورا بمجالس الطرب واللهو، حتى إن نور الدين محمود احتفل بختان ابنه الصالح إسماعيل في عيد الفطر سنة ٥٦٩هـ فزينت مدينة حلب بهذه المناسبة وأخرج نور الدين صدقات كثيرة وكسوات للأيتام[٥] وكانت هذه العادة جارية عند الأمراء المترفين، إذ أقام أمير شيزر محمد بن أبي العساكر سلطان دعوة كبيرة بمناسبة ختان ولده سنة ٥٥٢هـ، فجاءهم زلزال ذلك العام وقضى على الأسرة بأكملها، يضاف إلى ذلك بناء القصور المترفة، كما فعل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله حيث أنشأ له قصرا بالروضة على

---

(١)ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د. السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة ط٢ ، ١٩٨١م، ١/ ٣٠٦، ١/ ٣٥١، ٢٢٦/١.

(٢)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٩٣

(٣)المصدر السابق ، ص٨٨

(٤) المصدر السابق، ص١١٢-١١٣

(٥)الصاحب كمال الدين عمر أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق : د. سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي ، ط١، ١٩٩٧م ، ٥١٠/٢

شاطئ النيل، وسماه الهودج، وأنشأ حوله بستانا، إضافة إلى اشتهاره باللهو وحب الغناء والطرب وشرب الخمر[١] . ويعد أسامة بن منقذ من أفراد هذه الطبقة ، فقد عاش العقود الأربعة الأولى من عمره أميرا في بلده شيزر، وبعد أن خرج منها لازم الأمراء والملوك فكان متميزا بقربه منهم، وقد أكرموه و أقطعوه أملاكا ، فبقي من أصحاب هذه الطبقة. أما الطبقة الوسطى فتشمل رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع وكان أفراد هذه الطبقة من عامة الشعب، ويأخذون رواتب متوسطة . أما الطبقة الدنيا فتشمل العامة كالزراع والخدم والرقيق، فالمزارعون يعملون في إقطاعات الأمراء وأصحاب النفوذ كذلك الخدم والرقيق. وقد كثر الخدم في هذا العصر ولاسيما عند الملوك والأمراء ، وكان هؤلاء الخدم يتفانون في خدمة أسيادهم، وقد يصل بهم الأمر إلى التضحية بالنفس فداء لأسيادهم كما فعل أحد غلمان أبي العساكر أمير شيزر، إذ افتداه من أحد الطعنات فقُطِع ضلعان من أضلاعه جراء ذلك[٢] . وكان بعض أفراد هذه الطبقة يخدمون أسيادهم بضمير ووجدان، فيدافعون عنهم وكأنهم أهل لهم وإخوان،كما فعلت الجارية (فنون) جارية جد أسامة، حيث تلثمت وخرجت لقتال الإسماعيلية عندما هاجموا شيزر[٣] . إن حروب هذه الفترة واضطراب الوضع السياسي في البلاد بعامة، أحدث خللا في التوازن الاجتماعي، فقد كانت هذه الحروب الداعم الأساسي لوجود العبيد والرقيق. ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في تلك الفترة الصيد الذي كان متعة الأمراء والملوك، وبابا للرزق عند الطبقة الدنيا، إذ امتهن بعض الفقراء الصيد لسد حاجاتهم وضمان معيشتهم، فكانوا يصيدون الطيور بأنواعها، والأسود والسباع والغزلان والأرانب إلى جانب تربيتها والاعتناء بها [٤] .ومن مظاهر الحياة الاجتماعية وجود الصراع المذهبي الذي رافق الحروب الداخلية والخارجية وكان أشد فتنة وأعظم بلاء ، وهو صراع بين المذهب السني والمذهب الشيعي وتجسد في الدولة السلجوقية السنية والدولة الفاطمية الشيعية ، وقد ترافق هذا الصراع الديني مع مظاهر اجتماعية لدى الطرفين ، كالاحتفالات والمناسبات الدينية والأعياد ، نذكر على سبيل المثال ، تعظيم الشيعة ليوم عاشوراء الذي يوافق العاشر من محرم فقد كان الفاطميون يعلنون الحزن والحداد في

---

(١) الحنفي، بدائع الزهور، تحقيق:محمد مصطفى، ص١/٢٢١

(٢)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٩٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٤)المصدر السابق، الاعتبار، ص٧٦.

هذا اليوم ويجتمع الناس يبكون وينوحون. وقد تأثر الخلفاء العباسيون ببعض المظاهر الاجتماعية الدينية ، حيث بالغوا بالاحتفالات الدينية وخاصة بعيدي الفطر والأضحى . إن هذا الصراع الديني كانت له آثاره الأخرى التي مست حياة الناس وأعمالهم بل إن أفكارهم تأثرت بهذا الصراع ، فمن ذلك اتباع الرعية لدين حاكمهم أي كما يقال: (الناس على دين ملوكهم) ، فعندما حكمت الدولة الفاطمية انتشر التشيع في البلاد المصرية بشكل كبير وعندما ولت أدبارها وانتقل الحكم إلى الأيوبيين اتجه الناس إلى المذهب السني، هذا الخلاف المذهبي قد دفع الناس إلى التفرقة والتمييز بين طائفة وأخرى، وتحديد العلاقات الاجتماعية من خلال المذهب الديني. وظهر في هذه الفترة العيارون –وهم اللصوص وقطاع الطرق – نتيجة لاضطراب سياسة البلاد وضعف الحكام بين الحين والآخر، وقد عانى المجتمع الإسلامي من سوء أخلاق هؤلاء اللصوص ومباغتاتهم للبلاد والقوافل وغدرهم بإخوانهم المسلمين ، فكان بعضهم يتآمر مع الصليبين ويهاجم المسلمين ، ويغتنم منهم ويبالغ في أذيتهم وقد تعرض أسامة بن منقذ إلى هجوم اللصوص عندما كان متوجها نحو نابلس مع معين الدين أنر لكنهما تغلبا عليهم[1] . وهناك عامل آخر أدى إلى هذا التخلخل الاجتماعي، ألا وهو صراع الملوك والأمراء من أجل السلطة والحكم، وقد بلغ النزاع أوجه عند بعض الأمراء، فقتلوا إخوتهم الصغار كي يستأثروا بالحكم لأنفسهم وأولادهم من بعدهم، هذا النزاع على الحكم هو الذي دفع شاعرنا الأمير أسامة بن منقذ إلى مغادرة بلده، وهو الأمير المعظم فيها، إلا أن طمع عمه بالسلطة وخشيته عليها من أولاد أخيه جعله يخرجهم من شيزر وينفيهم عنها. يضاف إلى ذلك انعدام الثقة بين الناس، وكثرة الوشايات المغرضة ، ولاسيما عند المقربين من الملوك والسلاطين ، وقد ذكرنا أن مغادرة أسامة بن منقذ لدمشق في المرة الأولى كانت بسب حسد بني الصوفي وغيرتهم من بعد أن قربه معين الدين أنر. وقد كان للنساء في هذا العصر دور متميز وفعال ، ولاسيما في أمور الحكم والسياسة ، فكثيرا ما تدخلت النسوة في سياسة البلاد ،فطالبن بالحكم لأولادهن. وبرغم التمازج والاختلاط بين المجتمع الشرقي والمجتمع الغربي الذي حمل تقاليده معه من الغرب عندما جاءت الحملات الصليبية إلى الشرق ، إلا أن النساء العربيات حافظن على تقاليدهن وعاداتهن الشرقية الأصيلة ، فكن يدافعن عن حريتهن وأرضهن إن لزم الأمر ، كما فعلت زوج عم أسامة عندما هاجم الإسماعيلية شيزر ، حيث تلثمت ووضعت الخوذة على رأسها ،

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٧٠-١٧٢.

وخرجت للقتال مع قومها، وفي ذلك اليوم أيضا وزعت والدة أسامة أسلحة ابنها وعدته القتالية لمن يريد القتال، ثم أجلست ابنتها قرب شباك يطل على الوادي، فإذا دخل الباطنية رمتها من النافذة ، فموتها أشرف من أن تقع أسيرة بين الحلاجين والفلاحين[١] .

ثالثا: الحياة الثقافية :

كان العالم الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين مركزا للإشعاع الفكري ، إذ إن مراكز الحضارة الإنسانية والعلوم المتنوعة استقرت آنذاك في بلاد الإسلام[٢] . فباتت دولة المسلمين أمة عظيمة تعنى بكل جوانب العلم، وتعددت أماكن التعلم فكانت في المسجد والمدرسة والمارستان والمكتبات، وكان المسجد يقوم بدور فعال في مجال العلم والمعرفة . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري، وأسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاة السلجوقي المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور[٣]. ومن مدارس الأيوبيين في مصر:الناصرية والمدارس الفاضلية، وبنى الملك الكامل دار الحديث وعرفت باسمه المدرسة الكاملية ، كما كانت مدارس لتحفيظ القرآن تتواجد في القرى والمدن، لكن أسامة بن منقذ بصفته أميرا هو وإخوته، فإنه لم يدخل المدرسة العادية بل كان والده يحضر له الشيوخ الكبار ليعلموه الحديث والنحو، ويطلع أسامة على غريب القرآن وتفسيره، وعلى علوم البلاغة ويحفظ الشعر. وقد اهتم السلجوقيون بنشر العلوم الطبية ومنهم نور الدين[٤] فأسسوا المارستانات، أي المدارس الطبية والمستشفيات فيها ، وكانت تعقد فيها المؤتمرات الطبية في مواسم متفرقة. وقد كثرت المكتبات بعد تقدم صناعة الورق ، وكانت تزخر بالعلوم الدينية والعلمية والأدبية، وكانت من أهم المراكز الثقافة الإسلامية ، ومن أشهر المكتبات مكتبة نوح بن نصر السامانى ، ومكتبة مؤيد الدين بن العلقمي وزير المعتصم ببغداد، ومكتبة سنجر السلجوقي . ونتيجة للتوسع في الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والصينيين وغيرهم في هذا العصر، فقد دخلت علوم وثقافات جديدة إلى جانب العلوم الدينية، فأصبحت هناك علوم عقلية وعلوم نقلية. وقد أحرز العرب قصب السبق في ميدان الطب

---

(١)أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص١٤٤-١٤٥

(٢) ستيفن رنيسمان، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله إلى العربيه السيد الباز العريني، ، ١/٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م، ٤٢٠/٤.

(٤) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق:محمد حلمي محمد أحمد، ٢١/١.

والجراحة بينما كان الغرب غارقا في غياهب الجهل والتخلف، ومن مشاهير الأطباء آنذاك:يوحنا بن بطلان وكان ملازما لخدمة جد أسامة الأكبر أبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ وعاش حتى منتصف القرن الخامس الهجري وكانت له إصابات رائعة في الطب[١] وقد برع الأطباء في الجراحة إلى جانب المداواة، فعندما أصيب عم أسامة في عينه في أثناء إحدى الحروب، فقد خاطها الجرائحي وداواها، فلم تعرف العين المطعونة من الأخرى[٢] أما الإفرنج فكانوا يداوون مرضاهم بطرق غريبة، لا يقبلها عقل ولا منطق، فمن ذلك أن رجلا منهم طلعت له دُمَّلة في رجله، فأتى طبيبهم، وطلب من أحد الفرسان أن يقطع له رجله فضربها فلم تقطع ، ثم ضربها ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات الرجل [٣] ، وقد تناول شاعرنا أسامة ذلك في كتابه الاعتبار. أما في الرياضيات فاشتهر عمر الخيام ، والراوندي الذي كانت له مشاركة فعالة في الرياضيات .

وأما الفلسفة فكان للعرب فيها باع طويل ، ومن أشهر فلاسفتهم في هذه الفترة أبو حامد الغزالي (٤٥١- ٥٠٥هـ) وقد كان ركنا من أركان الفلسفة الإسلامية، تولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، ومن مصنفاته:إحياء علوم الدين، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، ومعيار العلم في المنطق وغيرها من الكتب[٤] . وأمّا كُتّاب التاريخ في عصر أسامة بن منقذ فمنهم:الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) واضع كتاب تاريخ بغداد[٥]، وابن عساكر (٥٧١هـ) وله مصنفات كثيرة من أبرزها تاريخ دمشق وأخبارها وأخبار من حكمها، على نمط ما كان الخطيب البغدادي قد فعل في تاريخ بغداد[٦]. ومن المصنفين في التراجم في عصر أسامة:العماد أسامة:العماد الأصفهاني (٥٩٧هـ) وقد دخل في خدمة صلاح الدين وتولى ديوان الإنشاء وصنف كتاب " خريدة القصر وجريدة العصر " ذكر فيه الشعراء الذين كانوا بعد المئة الخامسة إلى سنة ٥٧٢هـ وجمع فيه شعراء العراق والشام والجزيرة ومصر والمغرب[٧] .

---

(١)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٩٦- ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.

(٣)المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٤)حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي ، ص ٧٧٥.

(٥) عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٦٢

(٦) المرجع السابق، ٢٠٥/٣

(٧) المرجع السابق، ٤١٦/٣

ومن العلماء الذين ظهروا في علم الجغرافيا البكري (٤٨٧هـ) وكتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقيه والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك[١]، والإدريسي (٥٦٠هـ)[٢] هذا وبعد الحديث عن العلوم العقلية سنلقي نظرة على العلوم النقلية التي تشمل:علم القراءات، وعلم التفسير والحديث، والفقه، والنحو واللغة والأدب. وكان الرامشي النيسابوري (٤٨٩ هـ) من المبرزين في علم القراءات في ذلك العصر، وكان الواحدي (٤٦٨هـ) من أئمة التفسير [٣] ، ومن أئمة الحديث ابن عساكر (٥٧١هـ)، ومن أئمة الفقه كان سراج الدين الأوشي (٥٩٣هـ)، وابن أبي الصقر الواسطي (٤٩٨هـ) وله قصائد في الشافعية لأنه كان يتعصب فيها للمذهب الشافعي[٤] الشافعي[٤] والراغب الأصفهاني (٥٠٣هـ) من أئمة السنة.

أما في اللغة والنحو فكان الحلبي يتردد إلى دمشق يدرس فيها النحو ويشرح ديوان المتنبي[٥] وابن وابن الدهان البغدادي (٥٦٩هـ)، وكمال الدين ابن الأنباري (٥٧٧هـ) وكان إماماً في اللغة والنحو[٦]، وكان الطغرائي عالما بالعربية (٥١٥هـ)، وابن منجب الصيرفي (٥٤٢هـ) كان مترسلاً مترسلاً بارعا وضع دستورا لصناعة الكتابة، وكان رشيد الدين الوطواط (٥٧٣هـ) عالما باللغة والنحو والأدب، وكان ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) تلميذا لأبي العلاء المعري وله كتاب سر الفصاحة. وقال عنه ضياء الدين ابن الأثير في ديباجة كتاب المثل السائر:"ولم أجد ما ينتفع به في ذلك – أي في علم البيان- إلا كتاب الموازنة للآمدي وكتاب سر الفصاحة للخفاجي[٧].

ومن الأسماء المشهورة في الأدب نجد الحريري (٥١٦هـ) الذي عرف بمقاماته إضافة إلى براعته في النحو، وله كتاب ملحة الإعراب وهي أرجوزة في النحو[٨]، وعماد الدين الأصفهاني (٥٩٧هـ)

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٤/ ٥٨٤

(٢)أندريه ميكيل، الإسلام وحضاراته، ترجمة د زينب عبدالعزيز، مراجعة كمال الدين الحناوي، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ص٦١٢- ٦١٣

(٣)عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٦٢

(٤) المرجع السابق ٣/ ٣٠٨

(٥) المرجع السابق، ٣٠٧/٣

(٦) المرجع السابق، ٣/ ٣٧١

(٧) المرجع السابق، ١٦٨/٣

(٨)ياقوت الحموي ، معجم الأدباء، بيروت، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٤م ، ٤/ ٤١٩

المؤرخ والأديب المعروف صاحب كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر)[١]، وضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ) مؤلف كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وأما ابن الشجري (٥٤٢هـ) فقد كان فصيحاً حلو الكلام حسن البيان إماما من أئمة الأدب ومن تصانيفه الأمالي، وكتاب الحماسة، وشرح اللُّمع لابن جني، والقاضي الفاضل (٥٩٦هـ) كان كاتبا لقاضي الإسكندرية وقد بلغ في كتابه ذروة التكلف للصناعة المعنوية والصناعة اللفظية[٢]. أما الشعراء فنذكر منهم:الطغرائي مؤيد الدين أبا إسماعيل الحسين بن علي (٥١٣هـ) وله ديوان كبير أكثره في المدح وفيه قصيدته المشهورة "لامية العجم تمييزا لها من"لامية العرب"للشنفرى، حيث يشكو فيها من تقلب الدهر والإخوان، ومن الشعراء الشهروزي (٥١٣هـ) له شعر رائق على طريقة أهل التصوف، مع رشاقة في التعبير وكان من ذوي الاتجاه الصوفي. وكان الشعر الحكمي لابن الهبّارية (٥٠٩هـ) شعره غاية في الحسن. أما جودة الشعر فكانت عند السنبسي (٥٠٥هـ). أما كثرة الصنعة فكانت عند ابن الخياط (٥١٧هـ) وهو شاعر مكثر مجيد. وعرقلة الدمشقي (٥٦٧هـ) وقد كان جيد الشعر قليل التكلف[٣]. وابن القيسراني (٥٤٨هـ) مدح نور نور الدين زنكي، وهو شاعر مجيد له ديوان كبير وشعر سهل مشبع بالصناعة[٤].

---

(١)عمر فرّوخ ، تاريخ الأدب العربي ٥/ ٤١٩

(٢) عمر فرّوخ ، تاريخ الأدب العربي ٤١١/٣

(٣) عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٣٣٧

(٤) المرجع السابق، ٢٩٥/٣

المبحث الثاني:حياة أسامة بن منقذ وشاعريته وثقافته

نسبه:

هو الأمير أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر ، وينتهي نسبه إلى يعرب من قحطان[١] فهو عربي الأصل والنسب ، وأمير من أمراء شيزر " بفتح أوله وتقديم الزاي على الراء " [٢] وهي " قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة ، أوله من جبل لبنان . وهي قديمة ذكرها امرؤ القيس في قوله : [٣]

تقطّع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا "

ويكنى أسامة أبا المظفر وأبا الحارث[٤] ، ويلقب مؤيد الدولة ومجد الدين [٥] .

مولده :

ولد أسامة يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٤٨٨هـ) [٦] وهي السنة التي التي قرر فيها الصليبيون مهاجمة المشرق العربي[٧] . وكان مولد هـ في إمارة قومه "شيزر" هذه المدينة التي امتازت بموقعها الجغرافي المتميز ولا سيما في تلك الفترة التاريخية التي عانت فيها البلاد من هجمات الصليبين.

---

(١) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ٤٩٨/١، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٠٠/٢-١٠٢

(٢)ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر ، ١٩٨٤م ، ٣٨٣/٣ .

(٣) امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق : حسن السندوبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٥ ، ٢٠٠٤م ، ص ٦٢

(٤)ابن كثير ، البداية والنهاية ، توثيق الشيخ علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م، ١٢/ ٢٩٣

(٥)الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤م ، ١٦٥/٢١. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق:د.إحسان عباس، بيروت، دار صادر ، ١٩٧٧م، ١٩٦/١.

(٦)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٤٤

(٧) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، ١٧٠/١.

وبرغم ذلك كانت شيزر تحت إمارة بني منقذ من أشهر الإمارات الصغيرة آنذاك[١] وضمن هذا الإطار الملكيّ ، والبيت العلي تربى أسامة تربية الأمراء ونشأ نشأة الفضلاء، إلى أن أصبح في عصره من مشاهير الأدباء.

نشأته :

ترعرع أسامة في ربوع شيزر ذات الأشجار والبساتين الخضراء ، وكانت الغابات من حولها مليئة بالوحوش الضارية كالأسود والفهود والنمور[٢]، فدرج أمراء شيزر على اصطيادها من حين لآخر، وكان أسامة بارعا في الصيد براعته في الأدب والشعر. فأحب الصيد وتعلمه وهو صغير، وحضر كثيرا منه في شيزر، وفي غيرها من البلدان ، وجل رحلات صيده كانت برفقة أبيه وعمه أبي العساكر سلطان، كما يقول أسامة متحدثا عن الصيد:" فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد –رحمه الله– وكان مشغوفا بالصيد لهجا به وبجمع الجوارح"[٣] وبقي حبه للصيد الذي عشقه مذ نعومة أظفاره ملازما له بعد أن خرج من شيزر، فكان يصطاد مع الملوك والأمراء الذين يحل بديارهم ، وفي ذلك يقول:"ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر – رحمه الله– ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك – رحمه الله – ومن ذلك ماحضرته بمصر. ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك – رحمه الله – ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داوود بن أرتق – رحمه الله"[٤] . كان أسامة فارسا شجاعا، وعربيا أبيا ، وشاعرا مجيدا، وأديبا مؤرخا، فقد خبر القتال وأحوال المعارك وهو فتى في سن الخامسة عشرة، ويشير إلى ذلك في شعره فيقول[٥]:

لخمـــسَ عشـــرةَ نازلـــتُ الكُمـــاةَ إلى أنْ شِبتُ فيها وخيرُ الخيلِ ما قَرَحَا
أخوضُـــها كشـــهابِ القَـــذْف مبتســـما طلقَ المُحيَّا، ووجهُ الموتِ قد كَلَحَا

(١) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني ، ٣٩٩/١

(٢)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٤٦

(٣) المصدر السابق، ص٢٠٠

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٥) أسامة بن منقذ، الديوان، تحقيق وتقديم :الدكتور أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب بيروت، ط٢ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص٢٥٩ .

كان أسامة أبيا، لا يرضى الذل أو الهوان، لذلك فقد قرر الخروج من شيزر بعد تقلب عمه أبي العساكر سلطان ومعاملته السيئة له ، وذلك أن والد أسامة ولد عدة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا ، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما ، فغيروا كلا منهما على أخيه"[١] حيث راح أبو العساكر يسيء معاملة أولاد أخيه ، فلم يستطع أسامة احتمال هذا الذل ، ولاسيما أن المسيء له هو عمه أقرب أقربائه، لذلك استأذن والده بالرحيل عن شيزر قائلا له [٢] :

لا تُلـــزِمَنّي بـــالهَوان وحمْلـــهِ ... إنَّ احتمـــالَ الهُـــونِ ثِقْـــلٌ مُرْهَـــقُ
دَعْني وَقَطعَ الأرضِ دونَ مَعاشرٍ ... كـــلٌ علـــيَّ لغـــيرِ جُـــرمٍ مُحْنَـــقُ
فـاسمح ببعـديَ عـنهُمُ برضـاك لي ... إنَّ الـــذي ترضـــى عليـــه مُوفَّـــقُ
فضـلُ الأقـاربِ بِـرُّهم وحنـوُّهم ... فـــإذا جَفـــوني فالأباعـــدُ أرفـــقُ

فيرق والده لحاله ويأذن له بالرحيل عن شيزر حسما للنزاع فيلتحق بعماد الدين في الموصل، ويبقى معه فترة من الزمن لكن الشوق والحنين إلى الأهل لم يلبث أن أجج النيران في قلب أسامة الوفي فعاد إلى شيزر، وحالهم مع عمهم على ما كان عليه سابقا، إلى أن توفي والد أسامة سنة ٥٣١هـ، فقلب العم لأولاد أخيه ظهر المجن حتى أخرجهم من شيزر ، ولم يكن لهم ذنب غير الإقدام والشجاعة ، والخوف من ذهاب السلطة من أولاده، حيث نما إلى سمع عمه شجاعة أسامة وبطولاته الفذة، من ذلك أن أسامة خرج يوما لاصطياد أسد قد سمع بوجوده قرب شيزر ثم عاد إلى قومه ورأس الأسد بيده بعد أن اصطاده وحده.[٣]

ويذكر أسامة أن جدته حذرته من مغبة هذا العمل الذي سيزيد قلب عمه وحشة ونفورا منه[٤]، وما كادت شمس الصباح تشرق حتى أمر العم بإخراج أولاد أخيه من عنده، وألزمهم به إلزاما لا مهلة فيه فتفرقوا في البلاد[٥] .

---

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين ٣٥٣/١

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص١٧٨.

(٣)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٤٦.

(٤)المصدر السابق، ص٢٧-٢٨.

(٥)محمد راغب الطباخ الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تعليق:محمد كمال، حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٨٨م ٣٣/٢.

تنقلاته :

١- في دمشق : ٥٣٢هـ – ٥٣٩هـ

بعد ما ألزم أبو العساكر "سلطان " أولاد أخيه مرشد بالخروج من شيزر "قصدوا الملك العادل نور الدين، وشكوا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم، لاشتغاله بجهاد الفرنج"[١] ، فتفرقوا في البلاد. فقصد أسامة دمشق سنة ٥٣٢هـ، أي بعد وفاة أبيه بعام واحد، وأقام فيها ثماني سنين، اتصل خلالها بصاحب دمشق شهاب الدين محمود الذي رعاه خير رعاية وأكرمه أحسن إكرام كما يذكر أسامة بن منقذ ذلك فيقول:"وأجزل لي صاحبها –رحمه الله– العطية والإقطاع وميزني بالتقريب والإكرام ، يضاف إلى ذلك اشتمال الأمير معين الدين ــ رحمه الله ــ عليّ وملازمتي له ورعايته لأسبابي"[٢] وقد كان الأمير معين الدين نعم الصديق لأسامة، وخير من منحه الأمان، إذ استقبله أميرا معززا مكرما بعد أن نبذه أهله ونفوه عن بلده، نشأت هذه الصداقة بين الأميرين، ونمت مع الأيام، وتكللت بالود والاحترام، مما أوغر صدور الحساد، وأجج أحقاد المنافسين، فسعوا للفساد بينهما، وراحوا يؤلفون الأكاذيب، وينشرون الوشايات، حتى حققوا غايتهم ، فأبعدوا أسامة عن الأمير معين الدين. وحينذاك لم يجد أسامة بدَّاً من الرحيل، فتوجه إلى مصر، وقلبه مازال ينبض بحب الشام وأميرها معين الدين، وبعد رحيله كتب إليه قصيدة عتاب، مؤكدا فيها حبه وإخلاصه، وأن ما جرى بينهما إنما كان بتدبير الحساد والوشاة، ومن هذه القصيدة:[٣]

يـــا راكبـــاً تقطـــع البيـــداءَ همّتُـــهُ ... والعـــيسُ تعجـــزُ عمـــا تُـــدركُ الهِمَـــمُ

بلّـــغ أمـــيري:مُعـــينَ الـــدِّين مألُكَـــةً ... مِـــن نـــازحِ الـــدَّارِ، لكـــن وُدُّه أمـــمُ

ولاعتقـــدتُ الـــذي بيـــني وبينَـــك:مـــن ... وُدٍّ، وإنْ أجلـــبَ الأعـــداءُ ينصـــرمُ

لكـــنْ ثِقاتـــك مـــا زالـــوا بغِشّـــهمُ ... حـــتى اســـتوتْ عنـــدَكَ الأنـــوارُ والظُّلَـــم

كـــم حرّفُـــوا مِـــنْ مقـــالٍ في سِـــفَارَتِهم ... وكـــم سَـــعَوْا بفســـادٍ ضَـــلّ ســـعيُهمُ

---

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ٣٥٥/١

(٢)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٧-٢٨.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ١٩٦.

٢- في مصر : ٥٣٩-٥٤٩هـ:

ترك أسامة دمشق قاصدا مصر، ووصل إليها يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ، فقربه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وأكرمه أيما إكرام[١] وعاش أسامة في مصر معززا مكرما إلا أن الأحداث العصيبة التي مرت بها مصر في تلك الفترة قلبت الموازين، وجرَّت الوبال على أسامة، فلم ينعم بالراحة والاطمئنان فيها، لكن القدر كان ساقه إليها، وفي هذا يقول[٢]:

يا مصرُ ما دُرتِ في وهمي، ولا خَلَدي ولا أجالتْكِ خَلْواتي بأفكاري
ما أنت أول أرضٍ مسَّ تُرْبَتها جسمي، ولا فيكِ أوطاني وأوطاري
لكنْ إذا حُمَّتِ الأقدارُ كان لها قُوًى، تُؤلِّفُ بين الماءِ والنار

يذكر أسامة في كتابه الاعتبار[٣] الأحداث السياسية التي عاشها في مصر، وكان شاهدا عليها، حيث بدأت الاضطرابات بالخلاف الذي وقع بين الريحانية _ وهم عبيد الحافظ _ وبين جند مصر . وكان الخليفة آنذاك مريضاً، فلم يستطع الإمساك بزمام الأمور ، ثم توفي بعد أن أوصى بالخلافة لأصغر أبنائه وهو الظافر بأمر الله. ثم حدث نزاع بين ابن السلار ونجم الدين بن مصال من أجل الوزارة، لكن ضعف الخليفة أمام قوة الرعية ورغبتهم بتنصيب ابن السلار وزيرا بدلا من ابن مصال، أرغمه على الموافقة على ابن السلار، وكان أسامة ممن وقفوا إلى جانب ابن السلار[٤] وهكذا بدأت الفتن تشتعل لتصب في بحر من الدماء، حيث انتهى الأمر بمقتل كل من الملك العادل ابن السلار والخليفة الفاطمي الظافر بأمر الله. وقد أشار أسامة إلى هذه الخلافات كلها في كتابه المذكور بشكل مفصل.

وكما اعتدنا أن نرى أسامة فارسا شجاعاً، يخوض المعارك بقلب لا يعرف الخوف إليه طريقا، فقد اشترك في حروب عدة أثناء إقامته في مصر، حيث حارب إلى جانب ابن السلار عندما

---

(١)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٢٨-٢٩

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص١٢٥.

(٣)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٩-٣٠.

(٤)المصدر السابق، ص٣٠.

اختلف مع ابن مصال، كما حارب الإفرنج في" عسقلان"[١] حيث استشهد أخوه عز الدولة أبو الحسن علي في هذه الحرب .

وأخيرا سكنت الفتن في مصر ، واستقر الملك للملك الصالح طلائع بن زريك، وكان الود قائما بينه وبين أسامة ، لكن الحساد ما زالوا يتبعونهما حتى اضطر أسامة للرحيل عن مصر، ويشير إلى ذلك في إحدى قصائده التي قالها للملك الصالح[٢]:

رأى الحسودُ تداني وُدِّنا، فسعى حتى غدتْ بين داريَنا نوى قُذُفُ

فارقتُكم مكرهاً، والقلب يُخبرني أنْ ليس لي عِوضٌ منكم، ولا خَلَف

٣- في دمشق مرة ثانية : ٥٤٩-٥٥٨هـ

خرج أسامة مع أهله من مصر وعادوا إلى الشام ، وقد لا قوا في مسيرهم أهوالا عظيمة ، إذ قاتلهم المصريون ونهبوهم، كما هاجمتهم قبائل العرب على الطريق [٣] فعجز أسامة عن مواصلة السير مع أهله، فأعادهم إلى مصر ليكونوا برعاية الملك الصالح طلائع بن زريك ، الذي استقبلهم وأحسن إليهم ، كما هاجمهم الإفرنج على الطريق في مواضع عدة ، وأسروا أخاه نجم الدين أبا عبد الله محمدا. وبعد طول عناء ومشقة وصل إلى دمشق يوم الجمعة خامس ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ [٤]. وهناك اتصل بخدمة الملك العادل نور الدين[٥]، وأخذ يراسل الملك الصالح في مصر ليرسل أهله إليه، لكن الملك الصالح خاف عليهم من الإفرنج، فعرض على أسامة العودة إلى مصر ليسلمه مدينة أسوان، واستشار أسامة الملك العادل نور الدين في الأمر، فأجابه:"ما صدَّقت متى تخلص من مصر وفتنتها، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك. أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج وأسيّر من يحضرهم"[٦]. وحدث هذا إلا أن االفرنج خانوا خانوا العهد فكسروا مركب أهل أسامة وسرقوه، لكن سلامة الأهل والأولاد هونت الأمر عليه، إلا أنه حزن كثيرا على كتبه التي نهبت، يقول أسامة:"فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب

---

(١) عسقلان:مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبين بيت جبرين، معجم البلدان،٤/١٣٧

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص١٣٥.

(٣)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٤٦-٤٧.

(٤)المصدر السابق، ص٤٩-٥٠.

(٥)حسن عباس، أسامة بن منقذ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١١٣.

(٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٥٦.

الفاخرة ، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت"[١] . وبعد أن استقر أسامة في دمشق ، راح يسعى لفك أسر أخيه نجم الدين، فطلب العون من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان أمير شيزر آنذاك قائلا له[٢]:

يا ناصرَ الدينِ يابن الأكرمين ومنْ ... يُغني نَدَى كفِّهِ عن وابلِ الدِّيَمِ
هذا ابن عمكِ في أسرِ الفرنجِ لـه ... حولٌ تَجَرَّم في الأغلالِ والظلـم
يدعوك، لا بل أنا الداعي نَدَاكَ له ... يا خَيرْ من عَلِقَتهُ كفُ مُعْتَصِمِ

لكن القرابة وصلة الدم التي تربطهما لم تحرك فيه الشهامة ولا النخوة العربية ، إلى أن كان خلاص نجم الدين على يد الملك العادل نور الدين [٣] . وأثناء إقامة أسامة في دمشق في هذه الفترة ، وقعت زلازل عظيمة في الشام سنة (٥٥٢هـ) [٤] .

"خربت كثيرا من البلاد، فخرب منها حماة وشيزر"[٥] . وكان بنو منقذ مجتمعين عند صاحب القلعة في دعوة، فسقط الحصن عليهم ولم ينج منهم أحد[٦]، إلا الخاتون أخت شمس الملوك زوجة تاج الدين[٧]، أمير شيزر آنذاك، فحزن أسامة حزنا لا نهاية له انهمرت دموعه دون توقف، ورثى أهله بقصائد عدة، منها[٨]:

حيّـا ربُوعِـكِ، مـن رُبًى ومنـازِلِ ... سـاري الغمـامِ بكـلِ هـامٍ هامـلِ
وسـقتكِ يـا دارَ الهـوى بعـد النَّـوى ... وطَفَـاءُ تسـفحُ بـالهتون الهاطـل
دَرسـتْ منـازلُهمْ وأوحـشَ مـنهمُ ... مـأنوسُ أنديـةٍ وعـزُ محافـلِ
كـانوا شـجًى في صـدرِ كـل معانـدٍ ... وقـذًى يجـولُ بعـينِ كـلِ محـاولِ
غوثـاً لملهـوفٍ وملجـأً لاجـئٍ ... وجـوارَ ربِ جرائـرٍ وطوائـلِ

---

(١)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٥٨.

(٢)أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ١٩٩ .

(٣) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين ، ١/ ٣٥٧.

(٤) المصدر السابق، ٣٣٥/١.

(٥)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق الدكتور:عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٧م، ٩/ ٢٣٧.

(٦)عبدالرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس:د.خليل شحادة، مراجعة:د.سهيل ذكار ، بيروت ، دار الفكر ، ط٢ ، ١٩٨٨م ، ٢٨٥/٥.

(٧) كمال الدين عمر بن أبي جرادة، زبدة الحلب، ٤٨٤/٢.

(٨) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٥٤-٣٥٥.

وعلى الرغم من تقدم أسامة في العمر، إلا أنه لم يعتزل الحروب والغزوات ، حيث اشترك في حصار قلعة حارم سنة ٥٧٧هـ، حينما توجه الملك العادل نور الدين حاكم دمشق إلى قلعة حارم وهي للفرنج غربي حلب، فحاصرها وطلب الفرنج للقتال إلا أنهم امتنعوا وتشبثوا بحصنهم، فتعذر على نور الدين دخولها، فعاد إلى بلاده دون قتال، وكان الأمير أسامة معه في هذا الحصار[١] مع أنه ناهز السابعة والستين من عمره، وكان أسامة قد أدى فريضة الحج في العام السابق لهذه الغزوة، يدل على ذلك ما كتبه على حائط مسجد سيرين في مدينة حلب[٢]: حلب[٢]:

لـك الحمـدُ يـا مـولايَ كـمْ لـكَ منـةً ... علـيّ، وفضـلاً لا يقـومُ بـه شُـكري
نزلـتُ بهـذا المسـجدِ العـامَ قـافلاً ... مـن الغـزو، موفـورَ النَّصـيبِ مـن الأجـر
ومنـهُ رحلـتُ العِـيسَ في عـاميَ الـذي ... مضـى نَحـوَ بيـتِ الله ذي الـركنِ والحِجْـر
فأدَّيـتُ مَفْروضـي، وأسْـقَطتُ ثِقْـل مـا ... تحمَّلْـتُ مـن وِزرِ السِّـنينَ علـى ظهـري

وبعد هذه الغزوة لم نجد ما يشير إلى أن أسامة اشترك في أية حرب أو غزوة ، وبعد عام من هذا العام غادر دمشق إلى حصن كيفا .

٤- في حصن كيفا : ٥٥٨- ٥٧٠هـ

وكيفا هذه بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سقمان بن أرتق[٣]، وقد قصد أسامة حصن كيفا، وأقام عند صديقه الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق صاحب الحصن إقامة طيبة، رافقه في رحلات الصيد على الرغم من تقدمه في السن[٤] وكانت ديار بكر تنعم بالاستقرار والطمأنينة في تلك الفترة، كما كانت مكاتبها تزخر بالكتب[٥] فوجد فيها أسامة الراحة والسلام، لذلك عكف على التأليف والكتابة فألف كتاب "المنازل والديار "

---

(١) ابن الأثير، الكامل، تحقيق: د.عمر بن عبد السلام تدمري ، ٢٩٣/٩.

(٢) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٣٣٢ -٣٣٣ .

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ٣٠٥-٣٠٦

(٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٢٠٠-٢٠٤

(٥) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ٣١٢/٢

وهو في حصن كيفا. لكن هذا لا يعني أنه لم يؤلف أو يكتب قبل هذه الفترة، إذ نستطيع أن نعد الشعر من باب التأليف، كما أن المكاتبات التي يزخر بها ديوانه تعد في هذا الباب أيضاً، فمن ذلك على سبيل المثال مكاتبته للأمراء والملوك ، كالأمير معين الدين أنر[١] والملك الصالح طلائع بن زريك[٢]، ونستطيع أن نعزو قلة مألفاته إلى انشغاله بالحروب والغزوات وتنقلاته الكثيرة، وفي حصن كيفا استقرت حاله وتقدم به العمر فقلت تحركاته وسكنت نفسه إلى الكتابة. وظهر الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي أعلى راية الإسلام، وسحق الإفرنج، فكان مثار إعجاب الجميع، ولاسيما أسامة الذي راح يرسل إليه مدائحه معبرا عن احترامه وإكباره له فمن ذلك[٣]:

من ذا يناوي الناصر الملك الذي ... في كفه بحر ردًى ومواهبِ
وإذا سرى خلت البسيطة لجةً ... أمواجها بيض وبيض قواضبِ
ملَكَ القلوبَ محبةً ومهابةً ... فاقتادها طوعًا بهيبةِ غاضبِ

وكان ولد أسامة عضد الدين أبو الفوارس مرهق "جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين، فاستدعاه السلطان إلى دمشق، وكان أسامة حينها تجاوز الثمانين .

٥- في دمشق : ٥٧٠- ٥٨٤هـ :

لبى أسامة دعوة السلطان صلاح الدين الأيوبي فقدم دمشق سنة ٥٧٠هـ، فأكرمه السلطان ومنحه دارا وإقطاعا ، وكانا يتذاكران في الأدب، كما كان السلطان يستشيره في بعض الأمور[٤]، وبالمقابل كان أسامة يؤدي ما عليه من واجبات تجاه السلطان، فمن ذلك أنه ذهب إلى حلب في خدمته سنة ٥٧١هـ[٥] وأرسل من هناك مكاتبة إلى الملك صلاح الدين في صفر سنة ٥٧٢هـ ومنها[٦]:

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ١٩٦ -١٩٨

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٤- ٢١٢ - ٢١٣

(٣) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام)، ٥٢٧/١ .

(٤) المصدر السابق، ٤٣٥/٢

(٥)العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام)، ٥٤٤/١.

(٦) المرجع السابق، ص ٥٤٥-٥٤٦.

لا زال يـــا ملـــك الإســـلام في نعـــم قرينهـــا المســـعدان : النصـــر والظفـــر
فأنـــت اســـكندر الـــدنيا ، بنـــورك قـــد تضـــاءل المظلمـــان : الظلـــم والضـــرر
أعـــدت للـــدهر أيـــام الشـــباب وقـــد أظلـــه المهرمـــان : الشـــيب والكـــبر
فاسلم وعش وابق للإسلام ما جرت الـ أفـــلاك والنَّـــيِّران : الشـــمس والقمـــر

وفاته

وأخيرا قُدّر لأسامة أن يحيا حياة هادئة في سنواته الأخيرة بعدما ذاق مرارة العذاب، فكانت دمشق مسك الختام، فقد جاءته المنية في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٨٤هـ، ودفن شرقي جبل قاسيون –وهو يشرف على دمشق – بجانب نهر يزيد الشمالي[١].

آثاره :

ترك أسامة آثارا أدبية جمة منها ما هو مفقود حتى الآن، ومنها ما هو مطبوع أو مخطوط، فمن آثاره المطبوعة:

١– الديوان:كتب أسامة بن منقذ ديوانه في جزءين، لكنه طبع في جزء واحد بتحقيق الأستاذين:أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، وهناك طبعة أخرى عن دار صادر في سنة ١٩٩٦م. قسَّم أسامة ابن منقذ ديوانه إلى ستة أبواب هي:الغزل ــ الوصف ــ المُلَح ــ المديح ــ الأدب ــ المراثي، ورتب كل باب منها على حروف المعجم، إلا أنه لم يورد شعره كاملا في الديوان، إذ اختصره تجنبا لعيوبه وأخطائه كما يقول[٢]:

كُلمـــا ردَّدتُ في شـــعري النَّظـــر بـانَ ضَـعفُ العِـيِّ فيـه، وظهـر
لـــيس يرضـــيني، ولا يُمكنـــني جَحْـدُ مـا قـدْ شَـاعَ منـه، واشْـتَهر
فأُجيـــلُ الفِكـــرَ في تقْلِيلِـــهِ فـإذا قـلَّ اختصـرتُ المختصـر

ولهذا الديوان قيمة تاريخية تضاف إلى قيمته الأدبية، إذ أن بعض القصائد تشير إلى الأحداث التاريخية التي عاصرها الشاعر، كما أنها توضح لنا جانبا من حياته الخاصة، ونلمح ذلك من القصيدة التي أرسلها إلى الأمير معين الدين أنر حيث وضح الأسباب التي دفعته إلى الخروج من

(١)ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٩٩/١

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ١٤

دمشق[1] ومما يؤخذ على الديوان أن طريقة التقسيم إلى أبواب ألزمت الشاعر أن يجزئ القصيدة الواحدة ليضع كل جزء منها في الباب المناسب، إضافة إلى أنه لم يذكر الأسباب التي دفعته لكتابة القصيدة كما أنه لم يشر إلى تاريخها في معظم الأحيان.

٢- كتاب الاعتبار وهو كتاب متميز، تتجسد أهميته في تأريخه لأهم الأحداث التي جرت في عصر أسامة بن منقذ، حيث قدّم أخبارا لم تكن معروفة، ومما زاد من أهميته صدق الرواية، كان أسامة بن منقذ يذكر أحداثا شاهدها أو سمعها ، يضاف إلى ذلك عناية المؤلف بالسرد التاريخي لأحداث ذلك العصر، ولاسيما ما يتصل بالصليبيين الذين عاصرهم منذ ولادته، فالكتاب سجل تاريخي وجغرافي وتحفة أدبية تشهد لصاحبها بطول الباع في اللغة وحسن الذوق ، ومما يؤكد أهمية الكتاب شهرته التي ذاعت في كل مكان، فقد ترجم من اللغة العربية إلى لغات عدة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية. وقد قام المستشرق "ديرنبورج " بنشر الكتاب في نسخة فريدة إلا أنها ناقصة، وتبعه "فيلب حتي " فنشر نسخة جديدة صحح فيها أخطاء سابقه إلا أنها لم تخل من الهفوات أيضاً، إلى أن قام الدكتور قاسم السمرائي بنشر نسخة جديدة صحح فيها أخطاء سابقيه وألحق بالكتاب نصوصاً ضائعة كانت متناثرة في كتب التاريخ والتراجم. أما لغة الكتاب فهي سهلة، حيث اهتم مؤلف الكتاب بالناحية السردية، مبتعدا عن التنميق في التأليف، ومبتعدا عن اللغة الأدبية الرصينة.

٣-كتاب "لباب الآداب" نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر سنة ١٩٣٥م وهو كتاب قسمه أسامة بن منقذ إلى أبواب سبعة هي:الوصايا _ السياسة _ الكرم _ الشجاعة _ الآداب_البلاغة_ باب في الحكمة، كما قسم بعض هذه الأبواب إلى فصول عدة، فباب الآداب مثلا ينقسم إلى خمسة عشر فصلا منها:فصل في كتمان السر، وفصل في أداء الأمانة، وآخر في التواضع، وغير ذلك.

وأورد في كل باب من هذه الأبواب ما يتعلق من شواهد انتقاها من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومن بعض القصص التاريخية القديمة أو من الحكايات التي يذكرها له أحدهم، كما كان بين الفينة والأخرى يدخل أخباراً عن نفسه وعن أهله، فجاء الكتاب منمقاً وشاملاً لكثير من الأخبار والقصص والأحاديث والحِكم، وهذا الأمر يدل على اتساع ثقافة أسامة،

---

(١)المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٨

وغزارة معلوماته وقدرته المتميزة على التأليف وهو شيخ تجاوز التسعين من عمره ، كما يذكر في كتابه هذا حين قال:"ولولا أن النفس إذا غُولِبت غلبت، وإذا زجرت لجّت وآبت، لكن اشتغال من بلغ من السنين إحدى وتسعين بأعمال البر والثواب أجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب بعدما بلغ الزمان في وعظه، بتأثيره في قواه وسمعه وبصره لا بلفظه "[١] .

٤- كتاب "المنازل والديار[٢]". ألف أسامة بن منقذ هذا الكتاب سنة ٥٦٨هـ وهو بحصن كيفا، وقد دفعه على تأليف هذا الكتاب حزنه على أهله الذين قضى عليهم زلزال سنة ٥٥٢هـ، فقد تركت هذه الفاجعة في قلبه جرحا لم يندمل على الرغم من مر السنين، يقول أسامة بن منقذ:"فإني دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادي وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جر عليها ذيله، وصرف إلى تعفيتها حَوْله وَحِيْله، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس، موحشة العَرَصات بعد الأنس، قد دثر عمرانها، وهلك سكانها، فعادت مغانيها رسوماً، والمسرات بها حسرات وهموماً، ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلزال ما أصابها، وهي أول أرض مس جلدي ترابها، فما عرفت داري، ولا دور ولدي وإخوتي ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي"[٣].

وقد قسم أسامة بن منقذ هذا الكتاب إلى فصول عدة، اعتمدت كلها على ذكر المنازل والديار والمغاني والأطلال والربع والدمن والمحل والأوطان، وغير ذلك مما يقارب تلك المعاني، كما جمع فيه بين الشعر والنثر، فكان ينتقي الأشعار المناسبة لكل نوع، إضافة إلى بعض الخطب والأحاديث والأمثال ، وأورد فيه أخبارا عن أهله وشيئا من شعرهم إضافة إلى شعره .

٥- كتاب "البديع في نقد الشعر":وظهرت منه طبعتان مختلفتا العنوان، الطبعة الأولى حملت العنوان السابق، وصدرت بتحقيق الأستاذين:أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، أما الطبعة الثانية فحملت عنوان (البديع في البديع في نقد الشعر) بتحقيق الأستاذ:مهنا عبد الأمير وقد نشر في سنة ١٩٨٧م، ولكن دون اختلاف في الموضوعات أو المادة العلمية.

---

(١)أسامة بن منقذ، لباب الآداب ، تحقيق:أحمد محمد شاكر ، مصر ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٥م، ص٤٦٧

(٢)قام المكتب الإسلامي بنشر الكتاب لأول مرة سنة ١٩٦٥م، حيث تولى تحقيق الكتاب وتخريج نصوصه الأستاذ شعيب الأرناؤوط، ثم نشر مجددا سنة ١٩٩٢م بتحقيق الأستاذ مصطفى حجازي .

(٣)أسامة بن منقذ، المنازل والديار، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١ ، ١٩٦٥م ، ٣/١

وقد وضع أسامة بن منقذ في هذا الكتاب خمسة وتسعين باباً تحدث في كل واحد منها عن مسألة من مسائل البديع أو البلاغة، وأورد تعريفا لكل منها، ثم ألحقه بشواهد متنوعة من القرآن الكريم والشعر وأقوال العرب، ومن هذه الأبواب:باب أجناس التجنيس، باب الاستعارة...إلى غير ذلك.

واعتمد في تأليفه على بعض كتب القدماء في نقد الشعر كما ذكر في مقدمة كتابه، حيث قال:"هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق من كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه فلهم فضيلة الابتداع ولي فضيلة الاتباع ، والذي وقفت عليه كتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الحالي والعاطل للحاتمي، وكتاب الصناعتين للعسكري ، وكتاب اللمع للعجمي وكتاب نقد الشعر لقدامة ، وكتاب العمدة لابن رشيق ، فجمعت من ذلك أحسن أبوابه وذكرت فيه مثالاته ليكون كتابي مغنيا عن هذه الكتب لتضمنه أحسن ما فيها"[١] . ويبدو تأثر أسامة بن منقذ بابن المعتز واضحا في هذا الكتاب، من جهة الموضوعات التي تطرق إليها، ومن جهة الأسلوب أيضاً، فمن أهم الموضوعات التي ذكرها ابن المعتز في كتابه (البديع) الاستعارة، التجنيس، المطابقة، لزوم ما لا يلزم..مما أبرز تداخل التجارب الإبداعية والنقدية والشخصية بين الشاعرين.

٦- كتاب "العصا":وقد طبعت في البداية منتخبات منه حققها الأستاذ عبدالسلام هارون، ثم قام الأستاذ حسن عباس بتحقيق الكتاب كاملاً[٢] .

ومما دفع أسامة بن منقذ إلى تأليف هذا الكتاب قصة قصها عليه والده، ذكر فيها كتاب العصا فبقي هذا الاسم راسخا في ذهن أسامة، فبحث عن الكتاب وسأل عنه نحواً من ستين سنة إلا أنه لم يجده فوضع كتابه هذا وهو لا يدري إن كان ذاك الكتاب على هذا الوضع أم لا، أما طريقة عمله في (العصا) فهي إيراد شواهد نثرية وشعرية يرتبط لفظها أو معناها بكلمة "العصا" وتكمن أهمية الكتاب في اشتماله على قصائد وأبيات لأسامة نفسه، وهي غير موجودة في ديوانه.

---

(١)أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق:علي مهنا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م،ص٨

(٢)حسن عباس، أسامة بن منقذ، حياته وشعره ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٥

أما آثار أسامة المخطوطة والمفقودة حتى الآن فهي :

١- كتاب (النوم والأحلام):وهو مخطوط لم يعثر عليه حتى الآن، ذكره أسامة في (الاعتبار)، وقال:"وقد أوردت في كتابي المترجم بـ(النوم والأحلام) من ذكر النوم والأحلام وما قيل فيها وفي أوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها"[١] .

٢- القلاع والحصون[٢]

٣- التجاير المربحة والمساعي المنجحة [٣]

٤- أزهار الأنهار[٤]

٥- الشيب والشباب:قيل إنه ألفه لأبيه.[٥]

٦- أخبار النساء[٦] .

٧- كتاب "القضا" ويرجح أنه كتاب "العصا" نفسه[٧] وقد يكون حدث فيه تصحيف بين رسم العين والقاف، والصاد والضاد.

٨- كتاب تاريخ أيامه [٨] وأغلب الظن أنه كتاب " الاعتبار " كتاب في أخبار أهله[٩] وقد يكون كتاب (المنازل والديار) لما يتضمنه من أحاديث تدور حول أهل أسامة، ولأن ما دفعه إلى تأليفه ما حل ببلاده وأوطانه من الخراب .

٩- التاريخ البدري:نسبه إلى أسامة بن منقذ يحي بن أبي طيء (في تاريخه)[١٠].

---

(١)أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٩٨

(٢)خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٥ ، ١٩٨٠ م ٢٩١/١.

(٣)عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٩٣م، ٣٣٧/١ .

(٤) المصدر السابق ٣٣٧/١

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٣٧

(٦) خير الدين الزركلي، الأعلام، ٢٩١/١

(٧)ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١١٠/٢

(٨) المصدر السابق، ١١٠/٢

(٩) المصدر السابق ،١١٠/٢

(١٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢١/ ١٦٦

ثقافته وشاعريته

نشأ أسامة في أسرة متدينة، فجدته مع أنها شارفت المئة كانت تأبى أن تيسر على نفسها في الصلاة[١] وقد كان والد أسامة الأمير مرشد لا ينقطع عن العبادة فكان يشغل نهاره بالصوم والصيد وليله بنسخ القرآن وكان من أحسن من يتلوه وقد ألف التفسير الكبير في علوم القرآن[٢]، وقد تنازل لأخيه عن ملك شيزر ليخرج من الدنيا كما دخلها وقد تركت هذه النزعة الدينية أثرها على ولده أسامة، وقد حرص الأمير مرشد والد أسامة على تنشئة أبنائه تنشئة صالحة فهو يصرفهم عن لهو الصبا برحلات الصيد المتتابعة ويهتم بأن يجعلهم من حفاظ القرآن، ويفرقهم في الطريق إلى الصيد ليحفظ كل منهم ما عليه من القرآن، ويوفر لهم أساتذة أجلاء لهم الباع الطويل في علم الحديث والقرآن، ونرى أسامة على امتداد حياته متمسكا بتعاليم الدين فلا نرى في آثاره وتصانيفه ميولا إلى المجون واللهو، ولا نطالع ذلك في ديوان شعره، وقلما سلم من اللهو والمجون شاعر في عصره، وعلى هذا الأب الجليل والشيخ الكبير تتلمذ أسامة منذ طفولته المبكرة ، وقد كان بنو منقذ بيت شعر وأدب وعلم وفروسية وكرم، وقد توافد عليهم كبار شعراء عصرهم مادحين ولاجئين، وكان المسجد بجامع شيزر معقلاً من معاقل العلم يتصدى فيه جماعة من العلماء الفضلاء، وقد انضافت إلى هذه البيئة العلمية جماعة من العلماء الفضلاء من بيئة علمية أخرى وهي معرة النعمان، فعندما دهم الفرنج معرة النعمان سنة ٤٩٢هـ انتقل علماؤها الكبار إلى شيزر وأقاموا بها، ومنهم أبو المجد محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان المعروف بمجد القضاة، وهو ابن ولد أخي أبي العلاء المعري، ولد بمعرة النعمان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وتولى القضاء بها وانتقل إلى شيزر سنة ٤٩٢هـ وأقام بها مدة، ثم انتقل إلى حماة ومات بها سنة ٥٢٣هـ، وقد روى عنه أسامة بن منقذ، وكان أبو المجد أديبا فاضلا وشاعرا وناثرا وراويا للحديث، فقيها بالمذهب الشافعي[٣]، ولم يكتف الأمير مرشد بهذا بل أرسل في طلب العلماء الكبار ليقوموا على تأديب أسامة وإخوته ، وقد مكنته ثروته من التكفل بنفقتهم فوفر على أسامة مشقة الارتحال في طلب العلم. وكان الشيخ العالم أبو عبد الله

---

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ٥٣.

(٣) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام)، ١١/٢.

الطليطلي يتولى دار العلم بطرابلس، فلما أخذها الفرنج نفر والد أسامة وعمه فاستخلصاه ومعه يانس الناسخ، وعلى هذا الشيخ الجليل قرأ أسامة النحو نحوًا من عشر سنين، وكان كما يصفه أسامة سيبويه عصره، وكان ذا حافظة قوية، قال في الاعتبار:(١) "وشاهدت بين يديه كتب النحو، كتاب سيبويه، وكتاب الخصائص لابن جني، وكتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وكتاب اللمع، وكتاب الجمل، فقلت يا أبا عبد الله قرأت هذه الكتب كلها؟ قال:قرأتها، لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري، خذ جزءا وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطرا واحداً، فأخذت جزءًا وفتحته، وقرأت منه سطرا، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظا حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها، فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر .

أما مؤدبه الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة الكفر طابي(٢) نزيل شيزر فقد كان بحرا في العلم وله تصانيف منها كتاب في "نقد الشعر " وكتاب " "غريب القرآن " وكتاب " بحر النحو " نقض فيه مسائل كثيرة على أصول النحويين كما كان شاعرا مجيدا (٣) وقد كان هذا الشيخ الجليل مرحا محبا لأسامة ، وقد جرت بينهما مداعبات طريفة(٤)، لقد أفاد شاعرنا أسامة من هذا المجتمع الأدبي الذي عاش في وسطه واقتبس منه أدبا جما وعلما واسعاً، وحفظ كثيرا من الشعر العربي القديم، فقد نقل الحافظ الذهبي عن أبي سعيد السمعاني قال:"قال لي أبو المظفر -يعني أسامة- أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية"(٥)، وقد كان للعلماء الذين تتلمذ على أيديهم أسامة أثر بالغ في حياته وتصانيفه في اللغة والأدب ، ومن العلماء الأفذاذ الذين تلقى عنهم العلم الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن سالم السَنبسي، فقد سمع منه الحديث ورواه عنه، ومما ساهم في إثراء ثقافته وشاعريته خروجه من شيزر مشردا منفيا فبدأ رحلته في طلب العلم، فقد تتلمذ على أبي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله التميمي الإشبيلي بمصر، وأبي هاشم محمد بن أبي محمد بن طفربحماه، وأبي القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي خطيب دمشق سمعه بدمشق وآخرين غيرهم، ولا يمكننا أن نحيط

---

(١)العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام)، ص ٢٠٩

(٢) الكفر طابي:بفتح الكاف والفاء وسكون الراء وفتح الطاء المهملة وهي بلدة من بلاد الشام عند معرة النعمان بين حلب وحماة (أنساب السمعاني) ص٤٨٥.

(٣) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام) ٥٧٣/١.

(٤) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٨. و أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تحقيق:أحمد محمد شاكر، ص ١٠١.

(٥) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ١٣/٢٧.

علما بعدد هؤلاء الرجال والعلماء الأفذاذ الذين اجتمع بهم أسامة في مصر والشام والعراق وغيرها حيث تنقل أسامة بين هذه البيئات العلمية، وعمل في خدمة الملوك والسلاطين، فاستطاع أن يجتمع بمن يحيط بهم من العلماء والشعراء وذوي الأقدار ، وأن يطالع النفائس التي تحتوي عليها مكتبات قصورهم، وتكفي مقولة أسامة حين نهب الفرنج أهله وكتبه البالغة أربعة آلاف مجلد حينما عادوا من مصر حيث يقول:فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت"[١] .

كل تلك العوامل كونت من أسامة شاعرا بارعا ومؤلفا مجيدا، [٢]"فلم يكن كبقية شعراء عصره لا من حيث شعره، ولا من حيث ثقافته فحسب، ولم يكن من الذين توسلوا بشعرهم لاكتساب الرزق فاضطروا إلى الإكثار من المديح لأكابر الناس وأصاغرهم، واضطروا إلى هجاء أعداء ممدوحيهم، بل إن المناسبات المختلفة قد حفرت لشعرهم مجرى محددا لم يستطيعوا الخروج منه إلا قليلا ليتغنوا بعواطفهم ويعبروا عن أحاسيسهم، ومع هذا الاضطرار في القول كان لابد من سيطرة النماذج التقليدية المألوفة على أساليب هؤلاء الشعراء، وكان لابد لهم أيضاً من أن يسرفوا في الحلى البديعية، وضروب التأنق اللفظي لمحاولة إثبات ذاتيتهم عن طريق الإبداع الشكلي ما دام الإبداع الفكري قد فاتهم.

لم يكن أسامة بن منقذ مضطرا إلى ذلك كله، فلم يشبه شعراء عصره في شيء من ذلك فهو أمير مستغن بنفسه عن المديح والهجاء، ولكنه عاش عصره بكل ما فيه، عاش دروب السياسة الضيقة، وعاش معمعة الجهاد ضد المد الصليبي، وعاش في قلب الأحداث التي كانت تصطرع في العالم الإسلامي، واكتوى بما ألمّ بوطنه ومسقط رأسه وأسرته، وقد خبر حلو الزمان ومره ، فجاشت في نفسه عواطف متباينة خلال حياته التي امتدت سنين عدداً، من أجل ذلك نحس بنبض الحياة قوياً في شعره.

ونحس ذاتيته تغلب صنعته الشكلية في كثير من الأحيان، ونستشعر صدقه الفني في التعبير إلى جانب صدقه الواقعي في متابعة أحداث عصره، وعندما تجيش عواطفه تتسابق أفكاره ونرى آية ذلك في مظهرين:

الأول:التدفق السلس الذي ينحدر كماء أتيٍّ لا شيء يعوقه أو يعطل مجراه .

---

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٥٨

(٢) حسن عباس ، أسامة بن منقذ حياته وشعره، ص ١٦٩

الثاني:الوحدة العضوية التي تشغل الشاعر فكراً وعاطفة مذ يشرع قلمه للكتابة حتى يضعه. لقد ارتبط شعر أسامة بالتراث ارتباطا قوياً؛ ولكن مع احتفاظه بشخصية قوية مسيطرة، فقد ارتبط بالأغراض المألوفة في الشعر العربي، بل إنه رتب ديوانه عليها، وكانت مطولاته غالبا خاضعة لما درج عليه الشعراء الأقدمون من اشتمالها على عدة أغراض، وحاول أسامة أن يضع تلك الأغراض كلاً في موضعه. ولم يخضع أسامة للمنهج التقليدي للقصيدة العربية خضوعا تاما، فلا نراه يستهل قصائده بالبكاء على الأطلال، ولكنه يستهلها عادة بالغزل ولوعة الفراق، ولعل هذا ما يجعلنا نحس بصدق أحاسيسه وعواطفه"[١] فلا عجب أن ينشأ شاعرا فحلا ويحيا فارساً ثابتاً لا تزعزعه الأعاصير ولا تضعف عزماته الرزايا والأهوال.

يقول عنه ياقوت الحموي في معجمه " وفيهم جماعة شعراء _ يقصد بني منقذ _ لكن أسامة أشهرهم وأشعرهم"[٢]. وقال عنه الإمام ابن كثير:"له أشعار رائعة ومعان فائقة"[٣] .

وقال العماد الأصفهاني:"أسامة كا سمه في قوة نظمه ونثره"[٤] .

---

(١) حسن عباس، أسامة بن منقذ حياته وشعره، ص١٧٠-١٧١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٢ /١٧٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣١/١٢.

(٤) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ٤٩٨/١.

المبحث الثالث:الفخر (ماهيته ومضامينه)

الفخر لغة:

معاني (ف خ ر) تدور حول أن الفخر هو:التمدح بالخصال والافتخار وعد القديم، وتكاد تجمع المعاجم اللغوية على معنى واضح لكلمة "فخر" فالخليل بن أحمد الفراهيدي يقول:"فِخركَ:مُفاخِرُك، كالخَصِيم، تقول:فاخَرْتَهُ فَفَخَرْتَهُ، وهو نشر المناقب وذكر الكريم بالكرم"(١) والفخر عند ابن دريد"أن يَعُدَّ الرجل قديمَه"(٢) والجوهري يقول:"إن الفَخْر هو:الافْتِخَار وعَدَّ القديم كذلك الفَخَرُ ، وفاخرْتُ الرجل فَفَخْرتَهُ، وأفْخَرُهُ فخْرا إذا كنتُ أكرم منه أبا وأما"(٣) ويقول ابن فارس في كلمة "فخر":الفاء والخاء والراء أصل صحيح وهو يدل على عِظَم وقِدَم من ذلك الفَخْر، ويقولون في العبارة عن الفَخَرِ، هو عدُّ القديم، والتَفخّر:التعظّم، والناقة الفخور:العظيمة الضرع القليلة الدَّر (٤) .

وتتكرر مثل هذه المعاني عند ابن فارس إذ يقول:الفَخْر:عدُّ القديم وفَخَرت الرجل على صاحبه أفخَر فخْرا:فضلته عليه. وابن سيده يكرر المعاني التي وردت ويقول:"وفاخَرَهُ مَفْخَرَةً ، يَفْخَرَهُ فَخْرا : كان أفْخَر منه، والفَاخِرُ :الجيّد من كل شيء، والفَخِيرُ :المغلوب بالفخر(٥) وابن منظور جمع ما قيل سابقا فقال:"الفَخَر والفَخار والفَخارةُ والفِخيِّرَى والفِخِّيراء:التمدح بالخصال والافتِخار وعدّ القديم ، وتَفَاخَرَ القوم: فَخَرَ بعضهم على بعض، والتفاخر:التعاظم والتفخر التعظم والتكبر، وفاخره مفاخرة وفخاراً:عارضه بالفُخَّر فَفَخَره، وقوله تعالى:"إن الله لا يحب كل مختال فخور "الفخور:المتكبر، وفي الحديث:"أنا سيد ولد آدم ولا فخر" الفَخْر:إدِّعاء العظم والشرف والكبر، أي لا أقوله تَبَجُّحا ولكن شكرا لله وتحدثا بنعمه، وفَخَر الرجل:تكبر

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي:وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١م، مادة " فخر "

(٢)ابن دريد، كتاب جمهرة اللغة، حققه وقدم له:رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ط١، مادة"فخر".

(٣)الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت،دار العلم للملايين، ط١٩٧٩،٢م، مادة " فخر" .

(٤)ابن فارس، معجم مقاييس اللغة:تحقيق عبد السلام هارون ، مصر، دار الفكر ، ١٩٧٩م ، مادة " فخر "

(٥) ابن فارس، مجمل اللغة، حققه الشيخ هادي حسن حمودي، الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٩٨٥م ، مادة " فخر "

بالفَخْر، والفَخُور من الإبل العظيمة الضرع القليلة في اللبن، ومن الغنم كذلك، والفَخَّار، الخزف، والفَخارة:الجرة وجمعها فَخّار معروف، وفي التنزيل:

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ [١] ويكرر الزبيدي ما سبق من معان ويضيف إليها قليلا حيث يقول في "الفَخْر"إنه التمدح بالخصال وعدّ القديم والمباهاة بالمكارم من حسب ونسب، وقيل:هو المباهاة بالأمور الخارجة عن الإنسان كمال وجاه وقيل:الفخر إدعاء العظم والكبر والشرف، والتفاخر:التعاظم، والتَّفَخُّر:التكبر، وفُخِرَ فلان اليوم على فلان في الشرف والجلد والمنطق أي فُضّل عليه والمفخَرة:المأثرة وما فخر به"[٢]

والفيروز أبادي لا يأتي بجديد حيث يقول:"الفَخْر:التمدح بالخصال كالافتِخَار، وفَخَر كمَنَع فهو فَاخِر وفَخُور"[٣]

والمتمعن للمعنى اللغوي لكلمة "فخر" واشتقاقاتها المختلفة، يجد أن لها علاقة قوية بمعاني الضعف والعجز الذي يستوجب ادّعاء أو إظهار ما هو غير كائن حقيقة في أحيان كثيرة.

فالفَخْرُ:ادّعاء العِظَم والكِبَر والشَرَف"[٤] . وفي كلمة ادّعاء ما فيها من تشكيك في حقيقة مثول هذه القيم في شخص من يدعيها. وعرفت المعاجم أيضا الفخر بأنه عَدُّ القديم[٥]. وأن يَعُدَّ الرجل قَدِيمَه[٦] وعَدُّ القديم والمباهاة بالمكارم من حسب ونسب[٧]. وفي الرجوع إلى الماضي ووصف ما كان فيه من قوة وفاعلية للقبيلة أو الفرد وتعديد المواقف والأفعال في الأيام الخالية نكوص إلى الماضي إذ يُعَدّ من وجهة النظر النفسية آلية من آليات التكيف في حال الشعور بعدم الرضى والضيق والعجز[٨]، إنه ردّ فعل في حالات القهر والرضوخ والفشل فالرجوع إلى الماضي يشي بحاضر خاوٍ، ومستقبل فارغ مفعم باليأس. والتَّفَاخُر يعني التعاظُم، ونحن ندرك أن كل اتجاه نحو تعظيم الذات إنما يخفي وراءه شعورا حادا بالضعة والعجز. والفخور من

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ،دار صادر ، بيروت ، مادة " فخر ". والآية من سورة الرحمن ١٤.

(٢) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية بمصر ،ط١، ١٣٠٦هـ ، مادة " فخر "

(٣) الفيروز أبادي، القاموس المحيط ، مادة " فخر "

(٤) ابن منظور، لسان العرب : مادة " فخر "

(٥) المصدر السابق، " مادة فخر "

(٦) ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة " فخر "

(٧)الزبيدي، تاج العروس، مادة " فخر "

(٨) فاخر عاقل، أصول علم النفس وتطبيقاته، بيروت ، دار الملايين ،ط٢، ١٩٨٤م، ص ١١٥-١١٦

الإبل:العظيمة الضرع القليلة اللبن ومن الغنم كذلك، وفي ذلك أن شيئا يظهر بغير حقيقته فالإبل العظيمة الضرع توهم بأنها كثيرة اللبن في حين أنها على العكس من ذلك فسميت الفخور. والفَخَّار الخزف، والفَخَّارة:الجرة، والخزف والجِرَار أيضا يحملان معنى الضعف فهي سريعة الكسر إذا ما تعرضت لأبسط صدمة لهشاشتها وضعف تماسكها إضافة إلى أن الجرة تكون منتفخة ولكنها فارغة، ويتضح أن معاني الفخر مايشير إلى العظمة الفارغة التي لا جوهر لها، وهذا أمر مهم إذ أن الفخر في كثير من الأحيان يكون دفاعا نفسيا عند الإحساس بالضعف .

الفخر اصطلاحا :

يقول حازم القرطاجني في تعريف الفخر :" الافتخار مدح يعيده المتكلم على نفسه أو قبيلته " [١] ويرى أن الفخر " جارٍ مجرى المديح " [٢] ويسبقه إلى مثل هذا الرأي ابن رشيق في عمدته حيث يقول :" والافتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه " [٣] ويرى هو الآخر أن " كل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار " [٤] . ما يلفت النظر في هذين التعريفين للفخر ذلك الربط الواضح بين المدح والافتخار بالقول:"الافتخار:مدح، والفخر:جارٍ مجرى المديح ، والافتخار هو المدح نفسه . فإذا كان المقصود تكرار القيم نفسها في الفنين فهذا جائز، لأن هذه القيم تتكرر حتى في أغراض شعرية أخرى . يقول أحد الدارسين في هذا المجال:"فإذا بقيم الفروسية تتكرر في الفخر عندما ينسبها الشاعر لنفسه وقومه وفي المدح عندما ينسبها للآخر ولقومه، وفي الرثاء عندما يبكيها في فقدان من كان يحملها ويحافظ عليها، وفي الهجاء عندما يسلبها الشاعر من المهجو ويجرده منها ويعريه أمام تقاليد البطولة والكرم والإباء والتضحية"[٥] فالمديح يشترك مع الفخر من من حيث القيم التي يمدح بها الشاعر ممدوحه والقيم التي يفتخر بها عندما يفخر بنفسه أو

---

(١)حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق:محمد الحبيب بن الخوجة ، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨١،ص٣٥٢ .

(٢) المصدر السابق، ٣٥٢

(٣)ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، بيروت ، دار الجيل ،ط٥، ١٩٨١م ، ٢ /١٤٣.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ١٤٣

(٥)مطاع الصفدي وإيليا حاوي، موسوعة الشعر العربي، المجلد الأول، الشعر الجاهلي، بيروت، لبنان شركة خياط للكتب والنشر، ١٩٧٤م، ص ٤٧

بقومه، بيد أن الفخر يبقى مختلفا عن المديح في دوافعه وأهدافه، فالدوافع بين هذين الفنيين تتفاوت كما أن الغايات والأبعاد بشقيها المعنوي والمادي تختلف وتتباعد قليلا أو كثيرا وإن كانت القيم الاجتماعية والمعايير الخلقية التي يتصف بها الشاعر أو الممدوح أو القبيلة هي أمور مشتركة .

وإذا عدنا لمعنى الفخر عند القدماء من النقاد وجدنا الجرجاني يقول:"إن الفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب"(١) . ومع أن هذا التعريف لا يخلو من العمومية فإنه يشير ويلمح بما تضمنه من معنى " التطاول " إلى دوافع الفخر وأهدافه . والمناقب في هذا التعريف تشمل جميع الصفات والخصال الرفيعة من الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة والفروسية والوفاء وإغاثة الملهوف .. ونحو ذلك .

وإذا تجاوزنا تعريفات القدماء للفخر إلى تعريفات المحدثين من نقاد ودارسين وباحثين وجدنا كثيرا منها يدور في الفلك نفسه الذي دار فيه تعريف حازم القرطاجي وابن رشيق. ولنطالع معا بعض هذه التعريفات ، يقول أحد الدارسين الفخر هو:"قدح بكرم الخلال، وطيب الشمائل، ومباهاته بنفسه أو قبيلته"(٢) . ويقول السباعي بيومي:"الفخر هو تمدح الشاعر بنفسه وقومه وذكر مآثرهم ومفاخرهم"(٣)

ويقول أحد الباحثين الفخر:"هو اعتزاز بفضائل تعارف عليها الجاهليون وجعلوها عِدْلاً للإنسان، فلا معنى لوجوده إن لم يتحل بها، ومنها الكرم، ونبل الخلق، وذكر الأيام والشجاعة والإقدام"(٤). ويرى دارس آخر أن هذا الفخر نتاج العصبية القبلية، فهو:"من توابع العصبية والحياة القبلية، وكان الشاعر يفتخر بقومه أولا وبنفسه ثانية"(٥) .

ومن آراء الدارسين المتعمقة في فن الفخر رأي مصطفى ناصف حيث يقول:"إذا بحثنا عن بعض الظروف التي تدعو الإنسان إلى الفخر بنفسه وجدنا الفخر غالبا ما يكون نوعا من العزاء الوهمي أو البديل الخيالي لماض فقده، وحاضر لا إشباع فيه، وهذا واضح لا شك فيه، فلن يضطر المرء إلى الفخر إلا إذا فقد شيئا سواء أكان ماضيا أم حاضرا، وأعز ما يفقده

---

(١)الشريف الجرجاني ،كتاب التعريفات، تحقيق وتعليق : عبد الرحمن عميرة ، بيروت، عالم الكتب ، ١٩٨٧، ص٢١٢

(٢)عبد المنعم خفاجي ، الشعر الجاهلي، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٦، ص٢٢٧

(٣)السباعي بيومي ، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص١١٢

(٤)إنعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٧٩، ١٢٨/١

(٥)عمر فروخ تاريخ الأدب العربي ، ، بيروت ، دار العلم للملايين ،ط٣ ، ١٩٧٨ ، ١/ ٨٣

الإنسان الاتصال بينه وبين الناس، فالفقد إذن يعتبر من أهم البواعث على الفخر، فإذا ارتفع صوت الإنسان بما يدعي أنه في حوزته فقد يكون ذلك عزاء عن ضعفه وشعوره بما لا يملك"[١].

ولعل تلك الآراء التي بينت لنا الفخر تلتقي وتؤكد المعنى المستوحى من الدلالة اللغوية للكلمة التي تدور حول ذكر الشاعر لمناقبه، وتعداد مآثر قومه والاعتزاز بها وتمجيدها .

ولقد وجد الشاعر من قوة القبيلة وكثرة عددها وقوداً للتعبير عن فخره، مهما كان حال القبيلة سواء أكانت تتمتع بالقوة والمنعة، أم كانت ضعيفة هشة وفي كلتا الحالتين كان لا بد لشعرائها أن يظهروها بأكثر الأشكال قوة وشدة وبأساً. إن شعر الفخر القبلي صور لنا القبيلة وقد تمتعت بكل صفات القوة لأن الفرز البيئي لأي عصر من العصور أفرز قيمة القوة والشجاعة، وجعلها في مقدمة القيم التي يؤمن بها المجتمع، ومن أبرز سمات القوة كثرة العدد، فالقوة هي سبب البقاء كما أن الضعف سبب للفناء، وقوة القبيلة وكثرة عددها ترهب القبائل المجاورة وتدفعها لتجنب مراعيها ومياهها فضلا عن التفكير في الاستيلاء عليها، لذا كان الفخر بالقوة من أظهر مجالات الفخر عند الشعراء على مدى تعاقب العصور الأدبية، ويمكن تلمس ذلك في معلقة عمرو بن كلثوم التي تغنى فيها بقوة قبيلته حيث يقول[٢]:

مـــتى ننقـــلْ إلى قـــوم رَحَانَـــا يكونـــوا في اللقـــاءِ لهـــا طَحينـــا
ألا لا يعلـــمُ الأقـــوامُ أنَّـــا تَضَعْضـــعنا وأنَّـــا قـــدْ وَنِيْنَـــا
ألا لا يَجْهَلـــنْ أحـــدٌ عَلينـــا فنجهـــلُ فـــوقَ جهـــلِ الجاهلينـــا

كما أن الفخر بالقيم الخلقية والاجتماعية كالكرم والشجاعة وغيرها من القيم الأخرى مجال رحب لدى شعراء الفخر يتغنون بها ويضيفونها إلى قبائلهم، فقيمة الكرم والجود والسخاء كانت من القيم الاجتماعية المثلى التي وردت على ألسنة الشعراء من ذلك ما نجده عند عامر بن الطفيل الذي يفخر بقومه وهم يقدمون الطعام الجيد لضيوفهم قبل عيالهم يقول في ذلك: [٣]

إنـــا لنعجـــلُ بـــالعبيطِ لضِـــيفِنا قبـــلَ العيـــالِ ونـــوردُ الأوتـــارا

---

(١)مطاع الصفدي، وإيليا حاوي، موسوعة الشعر العربي، بيروت، شركة خياط للكتب والنشر، ١٩٧٤م، ص٣٣-٣٤

(٢)التبريزي ،أبي زكريا يحيى بن علي ، شرح القصائد العشر للإمام، ضبطه وصححه:عبدالسلام الحوفي، بيروت، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، ١٩٨٧م ، ص ٢٨٨

(٣)عامر بن الطفيل ،الديوان ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩م ، ص٧٨

وها هوذا أسامة بن منقذ يحدثنا عن ملامح قومه وعزهم وكرمهم وهي ثابتة فيهم راسخة بل إنها تبدو من ملامحهم يقول:(١)

خلـــــقٌ نمـــــاهُ أغـــــرُّ أروعُ ميـــــ ... مـــــونُ النقيبـــــةِ ماجـــــدٌ أَنِـــــفُ
مـــــنْ معشـــــرٍ طابـــــتْ مغارسُـــــهمُ ... فَســـما لهـــم فـــوق السُّـــها شَـــرفُ
قـــــــومٌ إذا عـــــــدَّتْ مَنـــــــاقِبُهم ... كـــادتْ لهـــنَّ الشـــمسُ تَنكســـفُ

ومن فخره بقومه حديثه عن شجاعتهم ودفاعهم المستميت عن حصون إمارتهم وعن طردهم للأعداء سواء أكانوا من الخارج أم من الداخل وأنهم استطاعوا توطيد حكمهم وسلطتهم يقول في ذلك:(٢)

لم يَحمِهـــم حِصْـــنُهم منهـــا، ولا رَهِبَـــت ... بأســـــاً تَنـــــاذَرُهُ الأقـــــرانُ أزمانـــــا
إنْ أقفـــرتَ شـــيزرٌ مـــنهم، فهـــمْ جَعلـــوا ... مَنيـــعَ أســـوارِها بِيضـــاً وخُرصـــانا
هـــمُ حَمَوْهـــا فلـــو شـــاهدتَها، وهُـــمُ ... بهـــا لشـــاهدتَ آســـادا وخَفَّانـــا
عَلَـــوا بمجـــدهمُ ســـيفَ بـــنَ ذي يـــزنٍ ... كمـــا عَلَـــتْ شـــيزرٌ في العـــزِ غُمْـــدَانا

ومن مجالات الفخر لدى الشعراء فخرهم بذواتهم وبقدراتهم وفروسيتهم وبتميزهم عن بقية الناس. فها هو ذا المتنبي الذي نشأ في أسرة متواضعة كان يفخر بنفسه كثيرا، ويرى أن عظمته وضعته في عداد الملوك والأمراء مع أن نسبه لم ينحدر من سلالة ملكية، وإذا كان عنترة العبسي ذاك الشاعر الذي اشتهر باعتداده بنفسه وأنفته وإحساسه بالسيادة، على الرغم من كونه عبدا فقيرا، فكيف يكون الحال مع شاعر صنع مجده وعظمته بيديه، وشهد له بذلك الملوك والسلاطين ، وفوق ذلك كان أميرا فارسا من أسرة عريقة؟.

إن هذا الشاعر الذي أحس بعظمته ومجده، وورث الإمارة أبا عن جد ما هو إلا أسامة بن منقذ ، لذلك من الطبيعي جداً أن نجد ملامح هذه النفس الأميرية في شعره بل ينبغي لها أن تؤثر في روحه ومن ثم تظهر في أشعاره .

فقد عاش أسامة عقوده الأربعة الأولى من حياته في مسقط رأسه شيزر، ثم غادرها بعد أن أدرك أن الإمارة قد سلبت منه، وتملكها أولاد عمه مع أنه كان أحق بها منهم، فخرج أسامة من

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٥٧

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٨

موطنه ولزم صحبة الأمراء والملوك. وبعد أن هدمت الزلازل شيزر، وقضت على إمارة بني منقذ، بقي أسامة محافظا على لقب الأمير، لكنه بات أميرا بلا إمارة، كما ظلت روحة محافظة على نفس الأمراء من عزة وكبرياء وأنفة وسيادة.

وبعد أن خسر أسامة موطنه وإمارته ظل يبحث عن المكانة العالية التي تجعله يتمتع بالسيادة فهو أمير لا يطلب غير المعالي والأمجاد التي تليق بأمثاله، وخير دليل على ذلك فخره بنفسه التي تطلب العلا حيث يقول: (١)

زدني عُـــلاً لا أرتضـــي بـــاللُّهى حســبيَ مــا نوّلْــتُ:مــن مــال
وإنمــا أبغــي العُــلا، لا الغِــنى ومثلُهــا يَبغيــهِ أمثــالي

والأمير والفارس- سواء أكان حاكما أم لم يكن – يجد نفسه منذ الصغر محاطا بالخدم والعبيد، فيمارس سيادته عليهم ، ثم تتأصل روح السيادة في داخله كلما كبر، فيعتاد إصدار الأوامر ورؤية الطائعين له، فإذا انقلبت الأحوال، وذهبت سيادته، فمن الصعب عليه أن يستجدي الآخرين ويطلب معونتهم، هذه النقطة بالتحديد تبدو واضحة في شعر أسامة الذي تبدلت أحواله، وساءت معيشته وعلى الرغم من ذلك كان لا يخنع أو يضعف بل يفاخر بنفسه، فكان حينما يطلب المساعدة من أصدقائه الملوك الذين يكنون له الحب والتقدير، فيسألهم العون مقدما لهم المبررات، وعارضا لهم الأسباب، تتجلى روح الفخر في شعره من خلال حديثه المتكرر عن (الأنا)، ومثل هذا نجده في قصيدته التي أرسلها إلى الملك الصالح:(٢)

أنــا أشــكو إليــكَ دهــراً لحــا عُــو دي، وأعــراه فهــو يَــبْسٌ سَــليبُ
وخُطوبــاً رمــى بهــا حــادثُ الــدَّ هــرِ سَــوادي، وكلُّهُــنَ مُصــيبُ
أذهبــتْ تالــدي وطــارِفي الطّــا ري فضــاع المــوروثُ والمكســوب
وإبــائي أراهُ عــن حملــهِ المــنَّ ضــعيفا، وهــو القــوي الرّكــوب
ويــرى كــل مِنَّــةٍ لســوى الصــا لح غُــلّاً في حملــهِ تَعــذيبُ

وعندما يتلقى أسامة المساعدة فإنه يمدح مانحها، وفي الوقت نفسه يفخر بنفسه مركزا على نقطة هامة ، وهي:عدم وجود مثيل له، كقوله:(٣)

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٤٢

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٣ – ٢١٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢١

كـــمْ مِـــنْ يـــدٍ أوْلَيتِنْيَهـــا، أثْمَـــرتْ عنـــدي ومـــا كـــلُ الأيـــادي تُثمـــر
وكرامـــةٍ أبـــداً، أبـــوحُ بِشـــكرِها إنَّ الكـــريمَ علـــى الكرامـــةِ يُشْـــكر
والشـــكرُ مِـــنْ مثلـــي يَـــزينُ، وإنمـــا بثنـــاءِ مـــن يُثْـــني عليـــهِ يُفخَـــر

ونلاحظ فخره بنفسه رغم حاجته وذلك عندما طلب مساعدة ابن عمه لفك أسر أخيه حيث يقول: (١)

أنـــا ابـــنُ عمِّـــكَ فـــاجعلني بفـــكِ أخـــي من أسرِهِ، لـك عبداً، مـا مشـت قدمي
فملـــكُ مثلـــيَ لا يغلُـــو بمـــا بـــذلَ الـــ مُبْتَـــاعُ فيـــهِ ولا يُســـتامُ بـــالقيمِ

وتظهر مسألة الترفع فوق الناس في فخره بنفسه فنجده يعلنها صراحة بقوله معتزا بنفسه:(٢)

وهـــل في ارتحـــالي عـــن بـــلادٍ تَنكَّـــرتْ لمثلـــيَ أو للسَّـــاكنينَ بهـــا فَخـــرُ
وإنَّ بـــلاداً ضـــاقَ عـــني فَضـــاؤُها لأرحـــبُ مـــن أكنافهـــا للعُـــلا فِتْـــرُ
وهـــل يُنكـــرُ الأعـــداءُ فضـــلي وإنَّـــه لأسْـــيَر ذِكـــرا أن يواريَـــهُ الكَفْـــرُ
ألســـتُ الـــذي مـــا زال كهـــلاً ويافعـــاً لـــه الـــمَكرماتُ الغُـــرُّ والنائـــلُ الغَمْـــرُ

(١)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ١٩٩

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٠

الباب الأول

الدراسة الموضوعية

الفصل الأول : فخره بفروسيته الحربية

الفصل الثاني : فخره بسجاياه وخصاله الحميدة

الفصل الثالث : فخره بقبيلته ونسبه

الفصل الأول : فخره بفروسيته الحربية

يعد أسامة بن منقذ فارساً من فرسان العرب المعدودين، وهبه الله عز وجل قوة البأس، وقوة اللسان، وهما سلاح الحرب وسلاح القافية، ومن خلال ديوانه نتلمس صورة البطل المقاتل المتصف بأخلاق الفرسان ، وقد استخدم الشعر وسيلة للتعبير عن بطولاته وتجاربه مفتخراً بنفسه لأنه كان مثالاً صادقاً للفروسية والشجاعة والدفاع عن حياض الإسلام فقد عاش حياته أميراً وفارساً مناضلاً مذ نعومة أظفاره، يقول عنه ابن كثير: "أحد الشعراء المشهورين المشكورين، بلغ من العمر ستاً وتسعين سنة وكان عمره تاريخاً مستقلاً...."[١] وهو الذي يقول عن نفسه:

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماةَ إلى ... أن شبتُ فيها وخيرُ الخيلِ ما قَرَحَا

أخوضُها كشهابِ القذفِ مبتسماً ... طلقَ المُحيَّا ووجهُ الموتِ قد كَلَحَا

"فقد نازل كماة الحرب وشجعانها وهو في الخامسة عشرة من عمره وظل يخوضها كشهاب القذف يحمل سيفه وعدته وعتاده ،فكم مرة نازل فيها الشجعان وانكشفت على يديه الكرب، وظل على فروسيته حتى اشتعل رأسه شيباً لا يهين ولا يضعف"[٢]، وأسامة لا يخشى الموت في ساحة الوغى بل يتمنى ملاقاة الأعداء حيث يقول: [٣]

سلْ بي كُماةَ الوغَى في كلِّ معركةٍ ... يضيقُ بالنفسِ فيها صدرُ ذي الباس

يُنَبّئُوكَ بأني في مَضايقها ... ثبتٌ إذا الخوفُ هزَّ الشاهقَ الراسي

ويقول عن نفسه في قصيدة أخرى معبراً عن إقدامه يوم الحرب مفتخراً بذلك: [٤]

وللطِّعانِ في الكُماةِ أعيناً ... تَهْمي على السَّردِ نَجيعاً مُزْبِدا

فيا له من موقفٍ رقيبهُ ... كتائبُ الأعداءِ والواشي الرَّدى

لو لم تكُن عادَتِيَ الإقدامَ في ... أمثالِهِ قضيتُ فيهِ كَمدا

---

(١) أبو الفداء الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط١، ١٩٦م ، ٣٣١/١٢.

(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الشام)، دار المعارف بمصر، ط٢، ص٢٣٢.

(٣) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٦١

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٠.

ويقص علينا جانباً من قوته وبطولاته في الحرب، وتفرده وتجربته في منازلة الأبطال واقتياده لهم في صورة رائعة معبرة حيث يقول في كتابه العصا: [١]

لـو سـرتُ في عَـرضِ البسـيطة طالبـاً ... رجـــلاً خبـــيراً بـــالحروب مجربـــاً
عـــانى الحـــروب مجـــاهراً ومخـــاتلاً ... طفـــلاً إلى أن عـــاد هِـــمّاً أشـــيباً
قتـل الأسـود ونـازل الأبطـال في الـ ... هيجـــاء واقتـــاد الكمـــي[٢] الْمحْرَبـــا
لم تلـق مثلـي مـن يكـاد يُريـه حُـس ... ن الـرأي مـا قـد كـان عنـه مُغيَّبـا
وأرى مسـيَر الألـفِ تطلـب وِترهـا ... ضِـــمْنَ الغرائـــر فِرْيـــة وتَكـــذبا

وقد عبرَّ أسامة تعبيراً رائعاً عن رغبته في القتال وشوقه لذلك، فهو فارس تعوّد عليه وأصبح يجري حبه في عروقه وروحه وقد أظهر هذا الحب من خلال هذه الأبيات التي بعثها إلى أخيه[٣]:

هـذا كتـابُ فـتًى أحلَّتـهُ النَّـوى ... أوطانَهَـا ونبـتْ بـه أوطانُـهُ
شـطَّتْ بـه عمّـنْ يُحـبُّ ديـارُهُ ... وتفرّقـتْ أيـدي سـبا إخوانُـهُ
متتـابعِ الزّفـراتِ بـين ضـلوعهِ ... قلـبٌ يبـوحُ بسـرّهِ خفقانـهُ
تـأوي إليـهِ مـع الظـلامِ همومُـهُ ... وتـذودُه عـن نومـهِ أشـجانُهُ
أَلِفَـتْ مُقارعَـةَ الكمـاةِ جيـادهُ ... وسُـرى الهـواجرِ لا يَـني ذَمَلانُـهُ[٤]
يومـانِ أجمـعُ دهـرِهِ إمَّـا سُـرىً ... أو يـومُ حـربٍ تَلْتَظـي نِيرانُـهُ

ولأسامة ماضٍ مشرق، فقد كان مشعل الحروب وموقدها ،كلما خمدت، ولم يكن له هم سوى منازلة الأبطال أمثاله، وقد كانوا يخشونه ويخافونه لأنه يتحول عند القتال إلى وحشٍ ضارٍ ينقض على فريسته، وبعد ذلك تتحول حاله حيث أصبح كالفتاة الناعمة التي لا تبرح بيتها، حتى إنه خشي على نفسه أن يتعفن من طول البقاء بلا كفاح وجهاد، كما يصدأ السيف إذا بقي طويلاً في غمده، والرابط بين صورة حالته وصورة السيف هي محاولة من الشاعر لتصوير عمق

---

(١) أسامة بن منقذ ، العصا، تحقيق:حسن عباس – الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ص٢٦٠ .

(٢) الكمي الشجاع لابس السلاح.

(٣) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٠٠

(٤) ذملانه: نوع من سير الإبل اللين.

المأساة التي يعيشها، فهو يعلم أنه من المحال أن يعود إلى سابق عهده، كما أنه من المحال أن يستخدم الفارس السيف التالف في المعارك، يقول في ذلك[١]

انظرْ إلى صَرفِ دهري كيف عوَّدني ... بعد المشيبِ سوى عاداتيَ الأُوَلِ
وفي تغايرِ صرفِ الدهرِ معتبرٌ ... وأيُّ حَالٍ على الأيامِ لم تَحُلِ
قد كنتُ مِسْعَر حربٍ كلما خَمَدَتْ ... أضرمتُها باقتداحِ البيضِ في القُللِ[٢]
همّي منازلةُ الأقرانِ أحسَبُهم ... فرائسي فهمُ مني على وَجَلِ
فصرتُ كالغادةِ المِكسالِ مضجعها ... على الحشَايا وراءَ السَّجفِ والكِلَلِ
قد كدتُ أعفَنُ من طُولِ الثَّواءِ كما ... يُصدى المهنَّدَ طولُ المكثِ في الخِلَلِ

ونجده مرة يعبر عن أسفه لما حل به، ويشكو من حياة الرفاهية وخاصة تلك التي عاشها بمصر وهو يتعجب من نفسه كيف يستبدل بدروع الحرب حلل الأمراء، وهو الفارس الذي قضى حياته في نضال وقتال ولم يشغل نفسه بالرفاهية ، ولم يجدَّ في طلبها، ولا يرضى ببلوغ المجد فيها وإنما يبلغ العلا بسيفه ورمحه، يقول معبراً عن ذلك[٣]:

أروحُ بعدَ دروعِ الحربِ في حُللٍ ... من الدَّبْيقي[٤] فبؤساً لي وللحُللِ
وما الرّفاهةُ من رأيي ولا أَرَبي ... ولا التنعُّمُ من هَمي ولا شُغلي
ولستُ أهوى بلوغَ المجدِ في رفهٍ ... ولا العُلا دون حَطْمِ البيضِ والأسَلِ

وقد أظهر أسامة بن منقذ تحسره على ماضيه المشرق فقد كان صاحب الكف التي اعتادت حمل السيوف والرماح التي لها أفعال عجيبة في أجساد الأعداء، وهو الفارس الضرغام الذي يتجنب الأبطال قتاله وينفرون من مواجهته كما ينفر النعام من الأسد، أما الآن فيتعجب من حاله وقد أصبح بعد أن تجاوز السبعين يحمل العصا ولا يستطيع مقارعة الأبطال فانظر إلى تبدل حاله وعاقبة أمره يقول[٥]:

قدْ كانَ كفي مألفاً لمهندٍ ... تُعْرى القلوبُ له وتُفْرى الهامُ

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص٣٠٥

(٢) القُلل:الجماعات من الناس، والقُلةَ . بالضم:أعلى الرأس، والجمع قلل، والبيض: السيوف.

(٣) أسامة بن منقذ ، الديوان، ص٣٠٥

(٤)الدبيقي:الثياب الديبقية وتنسب إلى بلد في مصر .

(٥) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٣٢٢ – ٣٢٣

ولأسمـــرٍ لـــدْنِ الكعـــوبِ وجـــارُه حيـــثُ اســـتمرَّ الفكـــرُ والأوهـــامُ
تتزايـــلُ الأبطـــالُ عـــني مثلمـــا نَفَـــرتْ مـــن الأســـدِ الهصـــورِ نَعـــامُ
فرجعـــتُ أحمـــلُ بعـــدْ ســـبعينَ العصـــا فاعجـــبْ لِمـــا تَـــأتي بـــه الأيـــامُ

وليس هذا التحسر من أسامة سوى فخر بماضيه المشرق وبكفه التي كانت مألفا لسيوف الهند والرماح ، وبتزايل الأبطال عنه كتزايل النعام من الأسد الهصور، وعلى الرغم من كبر سنه إلا أن لديه همة عالية لا تعرف الملل ، يقول الدكتور عمر باشا:"نيف الشاعر على السبعين من عمره، وغدا غير قادر على غزو الفرنجة، ولكنه مع ذلك كان يتحامل على نفسه أحياناً، وقد ذكر أنه ركب مع نور الدين، واشترك معه في حصار قلعة حارم، ويظهر أنها آخر مرة اشترك فيها بحرب ، صور أسامة حاله في هذا العام "[١] .

يقول في تلك الحال مفتخراً بنفسه[٢]:

كـمْ قـدْ شـهدتُ مـن الحـروبِ فليتـني في بعضـــها مـــن قبـــلِ نكســـي أُقتـــلُ
والقتـــلُ أحســـنُ بـــالفتى مـــن قبـــلِ أن يَبلـــى ويُفنيـــهِ الزمـــانُ وأجمـــلُ
وأبيـكَ مـا أحجمـتُ عـن خـوضِ الـرَّدى في الحـــربِ يشـــهدُ لي بـــذاك المِنصـــلُ
وإذا قضـــــاءُ الله أخَّـــــرني إلى أجَلـــي المؤقّـــتِ لي فمـــاذا أعمـــلُ ؟

وعلى الرغم من شماتة الأعداء بأسامة إلا أنه يظهر صموده حيث يرى نفسه ذلك السيف الذي فلَّل حده منازلة الأعداء[٣]:

تظـــاهرَ قـــومٌ بالشـــماتِ جهالـــةً وكـــمْ إحنـــةٍ في الصـــدرِ أبرزهـــا الجهـــلُ
وهـــل أنـــا إلا الســـيفُ فلَّـــل حـــدَّه قـــراعُ الأعـــادي ثم أرهفَـــهُ الصَّـــقلُ؟

وبطولة الفارس لا تكتمل إلا بالعدة والاستعداد للعدو، وهذا الاستعداد لا يكون إلا بتوافر أدوات القتال التي تقود إلى النصر ـ بإذن الله ـ قال الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[٤]

---

(١)عمر موسى باشا ، أدب الدول المتتابعة (عصر الزنكيين والأيوبيين والممالك، دار الفكر الحديث . ص ٢٨١ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٣٢١

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩١

(٤) سورة الأنفال : الآية ٦٠

فالفارس يحتاج إلى هذه العدة التي تعينه في تحقيق نصره المنشود بالإضافة إلى أدواته المعنوية من دهاء، وذكاء، وحيلة ، وصبر ... لذلك جاء اهتمام الفارس بأدواته الحربية، فـ"السلاح زاد المحارب، يدافع به عن نفسه، ويرهب به عدوه، ولذا كان الشعراء يفخرون بما يحملونه من سلاح، ويتجهّزون به، ولكل زمان سلاحه، وكان سلاح هؤلاء الفرسان في عصرهم "السيف والرمح"[١].

والسلاح من أعز وأغنى ما يملك الفارس وقد تغنى كثير من الشعراء بهذه الأدوات الحربية مستشعرين أهميتها وقدرها، من ذلك قول عروة بن الورد[٢]:

وذي أمـــل يرجـــو تراثـــي وإن مـــا ... يصـــير لـــه منـــه غـــداً لقليـــل

ومـــالي مـــالٌ غـــير درع ومغفـــرٌ ... وأبـــيض مـــن مـــاء الحديـــد صـــقيلُ

وأسمـــرُ خطّـــيّ القنـــاة مثقـــف ... وأجـــرُد عريـــان الســـراة طويـــل

وتنبع قيمة هذا السلاح من حامله، ويستمد قوته من فارسه، فالعبرة ليست بالسلاح، وإنما باليد التي تحمل السلاح، يقول المتنبي[٣]:

إن السِّـــلاحَ جميـــعُ النـــاس تَحْملـــهُ ... وَلَـــيسَ كُـــلُّ ذواتِ المِخْلَـــبِ السَـــبُعُ

ومن أدوات الفارس الحربية التي يفتخر بها ويتغنى بها الفرس والسيف والرمح والسهم، فالفرس هي التي تقود الفارس إلى أرض المعركة وتشاركه البطولة، تلك الفرس التي تُعد "أحسن الحيوانات شكلاً .... وأرشد الدواب عدواً وذكاء، ولها خصال حميدة، وأخلاق مرضية، ولها صفاء اللون، وحسن الصورة، وتناسب الأعضاء، وحسن طاعتها للفارس كيف شاء صرفها وانقادت له"[٤].

---

(١)علي أحمد علام، شعراء فرسان تحت راية الإسلام "تاريخ وظواهر فنية)، دار الوفاء لدنيا لطباع والنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص٣٠٣ .

(٢) عروة بن الورد ، الديوان ، ص ٢٠٧ .

(٣) المتنبي، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، منسوب بالتبيان في شرح الديوان ضبطه وصححه ووضع فهارسه:مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، القاهرة ١٣٩٣ هـ ٢٣٤/٢ .

(٤) زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق: فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٤، ١٤٠١هـ، ص ٤٠٠

ولقد فضلها الله عز وجل وأقسم بها في كتابه العظيم قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾[١] ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:"أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مذابها، والخير معقود في نواصيها إلى يوم القيامة"[٢] .

وقد كثر الفخر بالفرس عند الشعراء فقد ذكر أبو عبيدة تلك المكانة للفرس منذ العصر الجاهلي بقوله:" لم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها ولا تكرمه صيانتها الخيل وإكرامها لها لما كان لهم فيها من العز والجمال والمتعة والقوة على عدوّهم، حتى إن الرجل من العرب ليبيت طاوياً ويشبع فرسه، ويُؤثره على نفسه وأهله وولده، فيسقيه المحض، ويشربون الماء القراح، ويعيّر بعضهم بعضاً بإذلال الخيل وهزالها، وسوء صيانتها، ويذكرون ذلك في أشعارهم"[٣] ويؤكد تلك الأهمية الجاحظ بقوله :" لقد استأثرت الخيل بحب العرب منذ أقدم العهود،لما تؤديه من خدمات يعجز عن أدائها سواها، لذلك كانت عنايتهم بها عناية شديدة، واهتمامهم بتربيتها اهتماماً بالغاً، ففيها من خصال الشرف والمنافع، والغناء في السفر والحضر، وفي الحرب والسلم، وفي الزينة والبهاء وفي العدة والعتاد، ما ليس في غيرها من الحيوان"[٤] وقد أُولع الفرسان بحب الخيل وعبروا عن ذلك أصدق تعبير، وقد ذكر الأصمعي أن ثلاثة من العرب لا يقاربهم أحد في وصف الخيل، وهم:"أبو داؤود الإيادي، والطفيل الغنوي، والنابغة الجعدي"[٥]، يقول أبو دؤاد الإيادي معبراً ومعللاً أسباب حبه للخيل:[٦]

عَلِقَ الخيلُ قلبي وليداً ... وإذا نابَ عندي الإكثارُ

علقتْ همتي بهن فما ... يمنعُ منّي الأعنة الإقتار

جنة لي في كلّ يوم رهان ... جمّعت في رهانها الأعشار

وإنجرارٍ بهنّ نحو عدوي ... وارتحالي البلاد والتسيار

---

(١) سورة العاديات : ١-٣

(٢) البخاري ،أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري، ضبطه ورقمه:د مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط٥ ٤١٤ - ١٩٩٣ م. كتاب الجهاد والسير، ص ١٣٦ .

(٣) أبو عبدالله محمد الأعرابي، كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها، تحقيق ودراسة:د.محمد عبدالقادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٤٠٤هـ ، ص ٥٨ .

(٤) أسامة بن منقذ، العصا، ص٢٦٠ .

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح :أحمد محمد شاكر دار المعارف بمصر ط ٢، ١٣٧٦هـ -١٩٦٧م ١٦٢/١.

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

وتستمد الفرس شجاعتها من فارسها، فعنترة يصف شجاعة جواده بقوله[١]

ما زلت أرميهم بثغْرةِ نحره ولَبانه حتى تسربل بالدمِ
فازورّ من وقْع القنا بلبانهِ وشكا إلي بعبرةٍ وتحمْحُمِ
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى أو كان لو عَلِم الكلام مكلّمي
ولقد سقى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
والخيل تقتحم الجنار عوابساً ما بين شيظمةٍ وأجردَ شيظمِ

يقول الدكتور كامل الدقس:"تفنن الشعراء الفرسان في أوصاف خيولهم في جميع حالاتها، وصوروها تصويراً رائعاً دقيقاً، فقد صوّروا استعدادها للحرب، واشتراكها في الموقعة، ودورها فيها، وحركاتها وهي تروح وتجيء، وتكّر وتفرّ أو تعلوا وتهوي في تداخل واختلاط ، وكأن العين تتبعها صعوداً وهبوطاً ، يمنة ويسرة، ..." [٢]

فقد رفع العرب الفرس إلى درجة عالية وعبروا عن حبهم لها وافتخارهم بها، وقد كان أسامة بن منقذ ممن افتخر بذلك من خلال فروسيته غير أنه لم يتحدث عن وصف الفرس . فيما أظن . رغم فروسيته وشدة تعلقه بها، ولعل ذكره للفرس ما هو إلا "رمز الشباب والقوة والشجاعة والإقدام"[٣].

ومن حديث أسامة عن الخيل وصلته بها في الحروب هذه الأبيات التي عبر بها عن فروسيته الحربية، فإننا نرى أنه قد أصبح بين فرسه وبين الحرب ألفة ومحبة وذلك لكثرة ما حضر من حروب وقتال ، وهو يقضي أيامه إما في سفر وإما في حرب تلتظي نيرانها .

يقول في ذلك: [٤]

أَلِفَتْ مُقارعَةَ الكُماةِ جيادهُ وسُرى الهواجرِ لا يَني ذَملانُهُ
يومان أجمعُ دَهرِهِ إما سُرىً أو يومُ حربٍ تَلتظي نيرانهُ

---

(١) عنترة بن شداد ، الديوان، تحقيق وشرح :عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ، وقدم له : إبراهيم الأبياري ، طبع شركة فن الطباعة بالقاهرة ، ص ٢١٦ – ٢١٨ .

(٢)كامل سلامة الدقس، وصف الخيل في الشعر الجاهلي، دار الكتب الثقافية،الكويت، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م ص١٤٤.

(٣) بهجت عبد الغفور الحديثي، دراسات نقدية في الشعر العربي، المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٤م ، ص ٦٥.

(٤) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص٢٠٠

ويتحدث أسامة مفتخراً بخيله في المعركة ، فهي خيل مقدامة لا تبالي بالأخطار وهي تتميز بصفات نادرة في المعارك فيقول في ذلك:[١]

أغْشى الوغى مُفرداً من أسرتي وهمُ هُمُ إذا الخيلُ خاضتْ لجّة العَلَقِ

ويخص خيول المسلمين ويصورها في أبهى صورة، فقد تغير لونها فغدت تتحلى باللون الأشقر الذي اكتسبته من دماء الأعداء، وهو بذلك يفتخر بقوة المسلمين وعزتهم ونصرتهم على الأعداء، يقول في ذلك:[٢]

وقد ضَاقتِ الدنيا عليه برحبها فلم يُنجهِ برٌّ ولم يَحمهِ بحرُ

أفي غدرهِ بالخيلِ بعد يمينهِ بإنجيلهِ بين الأنامِ له عُذرُ

دعتهُ إلى نكثِ اليمين وغدرهِ بذمتهِ النفسُ الخسيسةُ والمكرُ

وقد كان لونُ الخيلِ شتى فأصبحتْ تُعادُ إلينا وهي من دَمِهم شُقْرُ

كما أن الخيل هي التي تقود صاحبها إلى الموت، يقول أسامة في ذلك:[٣]

رميتَ العِدا بالأُسدِ في أَجَمِ القنا على الجُردِ، تقتادُ الردى وهو راغمُ

ومن أدوات الفارس الحربية السيف وهو لا يقل أهمية عن الفرس وقد كان له نصيب كبير من شعر الفرسان. وله أسماء عديدة، منها:الصمصامة، والمشرفي، والعَضْب، والحسام، والصارم، والمنصل[٤]...

وأدوات الحرب لها أوقات تفضل بعضها على بعض، غير أنه يظل للسيف المكانة الخاصة، فهو السلاح المستخدم عند المواجهة واشتداد الحرب، "إن المحاربين إنما يستخدمون النبال حينما يكون الأعداء على بُعد بيّن، والرماح حينما يكونون أقلَّ بعداً، والسيوف هي الآلة التي يُلجأ إليها حينما يتمّ الالتحام التام بين الأطراف المتقابلة، وهي الآلة التي يندر أن تخون أو تطيش، بعكس الرمح الذي يخون عادة بانكساره، والنبل الذي يطيش عن هدفه، لكل ذلك يرتاح

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٥٢

(٣)المصدر السابق، ص ٢٧٤ .

(٤)ابن سيده، أبو الحسين علي بن إسماعيل، المعروف ، المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، ١٦/٢.

الشجاع إلى السيف"[١]،يقول أسامة بن منقذ مفتخراً معتداً بسيفه الذي ينجده في حوادث الدهر:[٢]

ولَمَ أدّخِـرْ للسـيف، إن نـابَ أو نَبـا وللخطـبِ إلا صـارمي وسِـناني

ويخبرنا أسامة بوقت استخدام السيف وخاصة حين يلتقي الفرسان في ساحة الحرب، فلا سلاح يفيد إلا السيف، وذلك لتقارب المتحاربين ودنو بعضهم من بعض. يقول في ذلك[٣]:

ذلك[٣]:

صـبرٌ إذا مـا ضـاقَ مُعـترَكُ القَنـا فَرجـتْ سُـيوفُهمُ مضِـيقَ المـنهجِ

ويعتز أسامة بمصاحبته لسيفه في الحروب فيقول:[٤]

بصـارمٍ مـن رآه في قَتَـامٍ وغًـى أفـري بـهِ الهـامَ ظـنَّ الـبرقَ قـد لَمحـا

أغـدو لنـار الـوغى في الحـرب إن خَمَـدت بـالبِيض في البَـيْضِ والهامـاتِ مُقتَـدَحا

فقد رسم الشاعر لسيفه صورة جميلة معبرة في شدة لمعانه فهو مثل البرق من شدة ضربه يظن من رآه أن البرق قد لمحا، وقوة هذا السيف مستمدة من قوة صاحبه.

ويشير أسامة إلى مشاركة سيفه له في المعركة، فهو الأداة الفعالة في القضاء على الأعداء، فحينما يضرب الأقران بسيفه يقضي عليهم ويرديهم الهلاك، يقول في ذلك[٥] .

أخوضـها كشـهابِ القـذفِ يصـحبني عضـبٌ كـبرقٍ سـرى أو ضـوءِ مِقبـاسِ

إذا ضـربتُ بـه قِرنـاً أُنازِلـهُ أوحـاهُ عـن عائـدٍ يغشـاهُ أو آسـي

وسيف أسامة يشهد بفروسيته الفذة فهو لم يحجم عن خوض الردى مادام معه ذلك السيف الذي يعتز به وينجده في مدلهمات الحروب: [٦]

وأبيكَ ما أحجمتُ عن خوضِ الردى في الحرب يشهدُ لي بذاك المنصل[٧]

---

(١)أبو قيس صيفي بن الأسلت الأوسي، الديوان، دراسة وجمع وتحقيق:د.حسن باجودة، مكتبة التراث، ١٩٧٣م، ص١٥.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٧٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٥)المصدر السابق ، ص ٢٦١.

(٦)المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

(٧)المنصل:السيف.

ويعلن أسامة بأن سيوفهم ورماحهم تعطش فلا يرويها إلا دماء الأعداء يقول مفتخراً بذلك[١]:

والبيضُ دون خدورِ البيض مصلتةٌ حَكَتْ جداولَ ماءٍ غيرِ مُطَّرِدِ
والبيضُ والسمرُ لا تَروى بغير دمٍ من كل جائشةِ الأرجاءِ بالزَّبدِ
صَدِينَ حتى جَلاها في النُّحورِ وفي الـ ـهامات أروع يُرْوى غُلَّ كلِّ صَدِ

ولا يزال يفتخر بالسيف وبفتكه يقول في ذلك[٢]:

وهُمُّ الملوكُ البيضُ والسمرُ كالدُّمى وهمَّتُنا البيضُ الصوارمُ والسُّمْرُ
صوارمُنا حمرُ المضاربِ من دمٍ قوائمُها من جُودنا نَضرةٌ خُضرُ

وهذه السيوف مفاتيح للقلاع والحصون[٣]:

إذا اسْتَغلقتْ شُمُّ الحصونِ فعندنا مفاتِحُها: بيضٌ مضاربُها حُمرُ

ويؤكد هذه الصفة والمزية لسيوفهم بقوله[٤]:

وإن وعدوا بالغزو نَظْماً فهذه رؤوسُ أعاديهم بأسيافنا نَثرُ
سنلقى العِدا عنهم ببيضٍ صِقالها هَدَاياهُم والبُتْرُ يَرهِفُها البَتْرُ

ومن أدوات الفارس الرمح فهو من الأسلحة المهمة له، به يوجه طعناته للأعداء، وقد أطلق العرب عليه العديد من الأسماء، فأسموه بالخطي، والسمهري، والقنا، والرديني، وغيرها من الأسماء[٥].... "روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعمرو بن معد يكرب:أخبرني عن السلاح؟. قال:سل عما شئت منه، قال:الرمح، قال:أخوك، وربما خانك. قال:النبل، قال:منايا تخطئ وتصيب. قال:الترس، قال:ذاك المجن، وعليه تدور الدوائر. قال:الدرع؟ قال:مثقلة للراجل، متعبة للفارس، وإنها لحصن حصين. قال:السيف؟. قال: قارعتك أمك عن الثكل.قال عمر:بل أمك." [٦].

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢١٨.

(٢)المصدر السابق ، ص ٢٥٣.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٤)المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٥)ابن سيده، أبو الحسين علي إسماعيل، المعروف ، المخصص، كتاب السلاح، دار الكتب العلمية ، بيروت.

(٦)أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار ، كتاب الحرب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١/ ١٢٩.

فالرمح يعدُّ معاونا للفارس وله دور عظيم في نجدته، وقد تحدث عنه أسامة بن منقذ ووصفه مفتخراً بعمله في الأعداء فهو مثل جذوة النـار الـتي لم تقبس، وفيه الدواء الذي يشفي[١]:

وكلُّ أسمرَ فيه لَهْذَمٌ ذَرِبِ كجذوةِ النار لم تُقبسْ ولم تَقِدِ

كما وصف الرماح وقت الحرب – لكثرتها – بالشجر الكثيف الملتف[٢]:

كلُ أرضٍ فيها من الأُسد جيشٌ سائرٌ فوقَهُ من السُّمرِ غَيلُ

ويعبر عن فخره بالرماح لأنها قادرة على تتبع من لاذ بالفرار من الأعداء، فتقضي عليه وتجعله طعاماً للنسور، كما يبدو أن الرماح من آخر الأدوات الهجومية استخداماً في الحرب، يقول أسامة في ذلك[٣]:

فإنْ خَفَضَ الفُرسان للطعن في الوغى رِمَاحَهُمُ انقضَّت عليها القَشَاعِمُ

ويعد السهم من الأدوات الحربية التي لا يستغنى عنها الفارس وهو من الأدوات الهجومية ، إلا أنه لم يحظ بالحضور الحقيقي عند أسامة إلا في النادر القليل. ومن ذكره للسهم فخره به وذلك حينما يسند القوة والشجاعة كاملة فالسهم يستمد قوته من حامله، يقول في ذلك[٤]:

ترى كلَّ شَهمٍ في الوغى مثل سهمهِ نُفوذاً فما يَثنيه خوفٌ ولا كُثرُ

ومن أدوات الفارس الدروع فقد ذكره أسامة ولم يفصل في ذلك حيث يقول"[٥]:

وثِيرُ حَشايانا السُّروجُ وقُمْصُنا الد روعُ ومنصوبُ الخيامِ لنا قَصرُ

ترى الأرضَ مثل الأفقِ وهي نُجومهُ وإن حَسدَتها عَزَّها الأنجمُ الزُّهرُ

لقد كانت هذه الأدوات الحربية من داعما ومؤيدا لشاعرنا في ساحات المعارك التي أجاد في وصفها وافتخر بمشاركته فيها إلا أنه لم يطل في وصفها ويعلل ذلك الدكتور مسعد العطوي بقوله:"والمتصفح لديوانه يفاجأ بندرة الحديث عن الحروب الصليبية، مع أنه عاش معمعتها ببداية الهجوم الصليبي، وبداية الجهاد وقوته، وانتصار المسلمين وفتح بيت المقدس، وأرجح أن أسباب إعراضه عن ذلك يعود لكونه شاعراً غير مداح، ولتشرده في أقاليم الشام ومصر،

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢١٩.

(٢)المصدر السابق ، ص ٢٤٢.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٥)المصدر السابق، ص ٢٥٣.

ولعدم مصاحبته أبطال الحروب الصليبية كثيراً، وإنما فترات متقطعة، وربما للجفوة معهم، التي لا تصل إلى حد القطيعة"[١].

ولعلي أستعرض قصيدتين تظهران مدى فخره في تلك المعارك التي خاضها، ومنها القصيدة التي قالها على لسان نور الدين والتي نيفت أبياتها على التسعين، يقول الدكتور عمر باشا عنها " اختتم أسامة على لسان نور الدين قصيدة القصائد التي أرّخت أهم المعارك في هذا العصر وقد نيفت أبياتها على التسعين، فصورت الأحداث الكبرى في صورة واحدة على لسان بطلها، وما عرفنا شعراء الأحداث قبله من نهج هذا النهج، كابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي، وابن قسيم الحموي، وغيرهم. وجدير بالذكر أن المناسبة التي نظمت فيها القصيدة المذكورة اقتضت أن يكون أسلوبها على هذا النمط الفريد، ولو أن للشاعر الخيار لكان خطابه لصديقه على غير هذا الشكل"[٢].

ويتحدث الدكتور حسن عباس عن مشاركة أسامة في المعارك ووصفه لها حيث يقول:"اشترك أسامة في المعارك التي دارت بين الجيوش الإسلامية والصليبية اشتراكاً فعلياً، أظهر فيه من ضروب البطولة والمغامرة ما استحق من أجله أن يخلد ذكره في تاريخ هذه الحروب، وتعد قصائده في وصف تلك المعارك التي خاضها وثيقة تسجيلية مهمة تجعل شعره أقرب إلى الموضوعية بما فيه من تسجيل للمواضع والأسماء، ومراحل الصراع ونتائج الحرب، وتتضمن هذه القصائد بعض الفخر بالقوة والبطولة عند التعرض لوصف الجيش"[٣].

يقول أسامة في قصيدته التي قالها على لسان نور الدين[٤]:

أبى اللهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العصرُ

بهذا المطلع الرائع بدأ هذه القصيدة ليدلل على قوة الإيمان بالله ثم ينتقل إلى وصف الجيش والمعارك التي حدثت بينهم وبين الفرنج، حيث يقول في ذلك[٥]:

---

(١)مسعد بن عيد العطوي الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية، مكتبة التوبة، الرياض، ط١ ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م ، ص ٥١٠.

(٢)عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، ص ٢٩٧.

(٣)حسن عباس، أسامة بن منقذ، ص ٢٣٦.

(٤)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص٢٥٣ .

(٥)المصدر السابق، ص ٢٥٣.

نســـيرُ إلى الأعـــداءِ والطّـــيرُ فوقَنـــا لهَـا القـوتُ مـن أعـدائِنَا ولنـا النَّصـرُ
فبـأسٌ يـذوبُ الصـخرُ مـن حـرِ نـارهِ ولُطـفٌ لـه بالمـاءِ ينـبجسُ الصَّـخرُ
وجـيشٌ إذا لاقـى العـدوَّ ظَننـتَهم أسـودَ الشَّـرى عنَّـت لهـا الأُدمُ والعُفْـرُ
تَـرى كـلَّ شَـهمٍ في الـوغَى مثـلَ سَـهْمِه نفـوذاً فمـا يثنيـه خـوفٌ ولا كُثـرُ
هـمُ الأسـدُ مـن بـيضِ الصـوارمِ والقنَـا لهُـم في الـوغَى النَّـابُ الحديـدةُ والظُّفـرُ
يـرَوْن لهـم في القتـلِ خُلـداً، فكيـف بـا للـقاءِ لقـومٍ قـتْلهُم عنـدهم غُمْـرُ

بهذه الصورة الرائعة الجميلة يحدثنا أسامة ويفتخر في هذه المعركة بذلك الجيش الذي لا يقاوم حتى إن الطيور تتبعهم لتأكل من جثث أعدائهم، وقد استمدوا قوتهم من العزيمة الصارمة ،لأنهم يرون في القتل خلوداً لهم ،ثم ينتقل أسامة إلى وصف معارك وأحداث منها:معركة حصن العريمة التي انتهت بأسر (الجوسلين)، ومعركة آنب التي انتهت بقتل البرنس الذي كان من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة والتناهي في الشر"[١].ثم تحدث أسامة عن الصلح الذي كان بين المسلمين وبين البغدوين ثم انتقل إلى فتح مدينة " الرُّها"، يقول أسامة[٢]:

فتَحنا الرُّهَا حين استباحَ عِداتُنا حِماها وسنَّى مُلكَها لهم الخَتْرُ
جعلْنَا طُلى الفُرسانِ أغمادَ بِيضنا وملّكنَا أبكارَها الفَتكةُ البِكرُ

ثم انتقل إلى فتح تل باشر وتل عزاز فقال[٣]:

ونحن فتحنا تلَ باشِر بعدها وقد عَجزتْ عنه الأكاسرةُ الغُرُّ
أتى ساكنوها بالمفاتيحِ طاعةً إلينا ومسراهُمُ إلى بابنا شَهْرُ
وتلُ عِزازٍ صبَّحتُه جُيوشُنا فلم تحمهِ عنا الرجال ولا الجُدْرُ
ومِلنَا إلى برجِ الرصاصِ وإنَّه لكالسُّدِّ لكنَّ الرصاصَ له قِطرُ

---

(١)أبو شامة المقدسي الشافعي، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ٥٨/١.

(٢)أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٥٤.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٥٤.

ويذكر أسامة بأن جيش المسلمين استطاع إعادة الحصون والقلاع والمزارع والأملاك من الفرنجة وهي ليس لها حدود ولا عدد وهو بحق أمر يستحق الثناء والفخر به ،يقول في ذلك[١]:

وكم مثلِ هذا من قلاعٍ ومن قرًى ومُزدَرَعَاتٍ لا يحيطُ بها الحصرُ
رددنا على أهل الشآمِ رِباعَهُم وأملاكَهُم، فانزاحَ عنهم بها الفَقرُ
فكيف تُسامِينَا الملوكُ إلى العُلا وعَزمهُم سرٌّ ووقعاتُنا جَهرُ
وإن وَعدُوا بالغزوِ نَظماً، فهذه رؤوسُ أعاديهم بأسيافنا نَثرُ
فقل لملوك الأرض:ما الفخر في الذي تعدُّونَه من فعلِكم بل كذا الفخر

ولأسامة قصيدة أخرى يفتخر بمشاركته فيها مع المسلمين، وقد بدأت هذه المعركة في البر وانتهت في البحر ومنها[٢]:

غزوتَهُمُ في أرضِهم وبلادِهْم وجحفلُهُم في أرضها مُتزَاحمُ
فأفنيتَهم قَتْلاً وأسرا بأسرهِم فناجيهمُ مستسلمٌ أو مسالمُ
فلمَّا أبادتْهم سيوفُك، وانجَلت عن الأرضِ منهمْ ظُلمةٌ ومظالِمُ

ثم يبدأ أسامة في نقل المعركة إلى البحر حيث يقول:[٣]

غـزوتَهُمُ في البحـر حـتى كأنمـا الـ أسـاطيلُ فيـه موجـةُ المـتلاطمُ
بفرسـان بحـر فـوق دُهـمٍ كأنهـا علـى المـاء طـيرٌ مـا لهـن قـوادمُ
يُصـرِّفُها فُرسـانُها بأعنَّـةٍ جـرت حيـث لم توصـل بهـنَّ الشَـكَائمُ
يسـوق أسـاطيلَ الفَـرنجِ إلـيهمُ حمـامٌ وطـيرٌ للفـرنجِ أشـائمُ
دمـاؤُهمُ في البحـرِ حُمـرٌ سَـوائحٌ وهَـامُهُم في الـبرِ سُـحْمٌ جَـواثمُ
فلـم يَخـفَ في فـجٍ مـن الأرضِ هـارِبٌ ولم يـنجُ مـن لُجٍّ مـن المـاء عَـائمُ
وعـادَ الأُسـارىَ مُـرْدَفينَ وسُـفنُهم تُقـادُ، كمـا قـاد المهـارِي الخَـزَائِمُ

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٢)المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

الفصل الثاني:فخره بسجاياه وخصاله الحميدة:

يرى الباحث في حياة الشاعر أسامة بن منقذ بأن أخلاقه كانت سامية فقد كان يتحلى بصفات حسنة وجميلة ، فقد نشأ في كنف أبويه وعمه في وسط أسرة شريفة من أشهر الأسر العربية محافظة على تقاليدها وفروسيتها وأخلاقها، فقد كان متمسكاً بتعاليم الدين الإسلامي ، فلا نرى في آثاره وديوانه ميولاً إلى المجون، وقد تأثر في أخلاقه بوالديه وأسرته، ثم بشيوخه الذين تتلمذ على أيديهم من أمثال الشيخ السنبسي والتميمي وغيرهم الكثير،

وجميع المصاعب والمحن التي ألمت بشاعرنا في حياته لم تغيره ولم تزده إلا رفعة وتمسكا بالحق والخير، ولعل نعته بلقب الفارس أكسبه مجداً إلى مجد، فكان كلما نشبت حرب كان من السباقين لها، وفي أوقات السلم كان يقضي وقته في الصيد وفي مصارعة الأسود والوحوش.

وحياة الفروسية تقوم على مبادئ مميزة، أساسها مبدأ القوة، ومبدأ الأخلاق.

وقد كان أسامة مثالاً صادقاً لذلك الفارس الأبي المتصف بالأخلاق والقيم الأصيلة، وها هو ذا يفتخر بحلمه وصفحه عن الأعداء فقد تميز مع قومه بالحلم على أعدائهم والصبر عليهم مما جعل الجاهل من أعدائهم يظن بأن ذلك ضعفٌ، غير أن ذلك العدو الجاهل سرعان ما غير رأيه عندما رأى القوة التي كانت تتجلى في الحلم، وبدأ يذعن لذلك حينما اتضح له الأمر وفي هذا يقول[١]:

تـــوهَّمَ عجـــزاً حِلمَنـــا وأناتَنَـــا ... ومـا العجـزُ إلا مـا أتـى الجاهـلُ الغَمـرُ

فلمـــا تمـــادى غيُّـــه وضَـــلَالهُ ... ولم يَثنِـــه عـــن جهلـــهِ النّهـــيُ والزجـــرُ

برزْنَـــا لـــه كاللَّيـــثِ فَـــارقَ غِيلَـــه ... وعادَتُـــه كســـرُ الفـــرائس والهَصْـــرُ

وسِـــرنا إليـــه حـــين هـــابَ لقاءَنـــا ... وبـــانَ لـــه مـــن بأســـنا البُـــؤسُ والشـــرُ

ثم يتحدث أسامة على خلق الصفح والعفو والستر، وخاصة للمستجير والمسيء الذي يرجو ذلك العفو، وما أعظمها من أخلاق رائعة فيقول[٢]:

إنا لنُوفي على حال البِعادِ كما ... نُوفي لمن ضمَّه في قُربنا كَنفُ

ونغفرُ الذنب إن رامَ المسيءُ بنا ... عفواً ونسترهُ في حينِ ينكشفُ

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٥٢.

(٢)المصدر السابق ، ص ٢٣٢.

وإن جنى من رأى أنا نعاقِبُه يرُدنا الصفحُ أو يَعْتَاقُنا الأَنفُ
فما لإيعادِنا يومَ الوغى مَيَلٌ ولا لموعدنا يوم النَّدى خُلُفُ
فعندنا جنَّةٌ تدنو الثمارُ بها إذا دنا مُجتنٍ منها ومُقتطفُ

وتتعالى نبرة الفخر بصبره على طلب العلا مهما أصابه من كرب وهم وضيق؛ لأن لديه قلباً صابراً وعزيمةً صادقة لا تتغير وإنما هي صامدة صمود الجبال الرواسي، فيقول[١]:

متى رآني الشَّامتون ضَرعاً لنكبةٍ تَعرُقني عَرقَ المُدى
هم يعلمون أنني أصلبُ من صُمِّ الصفا فما عَدا مما بَدا
هل بزَّني الخطبُ سوى وفْرِي الذي كان مُباحاً للنَّوالِ والنّدى

ومن أخلاقه التي افتخر بها، صفة الكرم، فقد كان يبذل ذلك المال وينفقه لأنه على يقين بأن المجد الباقي والذكر الدائم بخلق الكرم، لا ببقاء ذلك المال ويوردها حكماً فيقول[٢]:

إنْ جَمعوا المالَ فأوعَوْا أتلفَتْ يدي طريفَ ما حوتْ والتّلِدا
هُمُ يرون المالَ ذُخراً باقياً وإنما ذُخرُ الفتى أن يُحمدا

ويذكر لنا مبادئه وأخلاقه الرائعة التي يعيش من أجلها ويفتخر بتحليه بها، والتي منها سعيه لاكتساب مكارم حتى يظل مخلداً بعد الممات، ويتحدث عن شجاعته في خوض المعارك التي لا يخاف ولا يهاب فيها، فإن تحقق ما يرجو فأنعم بذلك وإن مات فقد خلَّف ذكراً حميداً وثناءً مؤبداً يقول في ذلك[٣]:

سأُنفقُ وفرى في اكتسابِ مكارمٍ أظلُ بها بعد المماتِ مُخلَّدا
وأسعَى إلى الهيجاءِ، لا أرهبُ الرَّدى ولا أتَخَشَّى عَامِلاً ومهَنَّدَا
بكل فتىً يلقى المنيةَ ضاحكاً كأنّ له في القتلِ عَيشاً مُجَدَّدَا
فإن نلتُ ما أرجو فللجودِ ثم لي وإن مِتُّ خَلَّفتُ الثناءَ المؤبَّدا

---

(١)أسامة بن منقذ ، الديوان، ص٢٦١.

(٢)المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٨٤.

وهو ماضٍ في طريقه لاكتساب ذلك المجد الذي يتحقق بانقضاضه على أعدائه كالصقر أو كالسيف مبتعداً عن جمع غنائم الحرب متعففاً في ذلك، لأن المجد المعنوي هو الأجدر لكسبه[١]:

يحملن كلَّ ماجدٍ كالصَّقْرِ كأنَّه مُهنَّدٌ ذُو أَثَرِ
بعيدُ مَهوى همّةٍ وذكرٍ للمجدِ يسعى لا لكسبِ الوَفرِ

ويظهر تميزه وتفرده على غيره، وبخاصة في وقت الشدائد التي يخبر ويعرف بها الأبطال يقول في ذلك[٢]:

جرِّبْهُمُ مِثلَ تجريبِي، لتَخبرُهُم فللرجال إذا ما جُربوا قِيمُ
هل فيهمُ رجلٌ يُغني غِناي إذا جَلاَ الحوادثَ حدُّ السّيفِ والقَلَمُ

ويقول مفتخراً بجوده وكرمه في اليسر وفي العسر، وهذا العطاء جعل يده لا تكف عن البذل[٣]:

ما كفَّ كفّيَ عن جُودي بموجودي نوائبٌ وملمّاتٌ لَحَتْ عُودي
في اليُسرِ أبذلُ مَيسوري وأَبذُلُ في عُسري لطالبِ رِفدي شَطرَ مَوجودي

وينفي عن نفسه صفة البخل ويفتخر باعتداله في إنفاقه وكرمه، فإذا كان لديه مال وفير وهب الوفير وإن قل ذلك المال أعطى بقدرٍ يقول في ذلك[٤]:

جُودي بموجودي على النكباتِ في مالِي أَبَى لِي أن أُعَدَّ بخيلاَ
أهبُ الكثيرَ من الكثيرِ فإن لَحَت عُودي وهَبتُ من القَلِيلِ قَليلاَ
كي لا أكذَّبَ في رجائي آملاً إن البخيلَ يُكذّبُ التَّأميلا

وما أجمل هذه الحكمة التي ختم بها شاعرنا هذه الأبيات"إن البخيل يكذب التأميلا". وقال مفتخراً بكرمه وتفريق ماله لأنه يؤمن بأن الله سيعوضه على ما أنفق وأعطى[٥]:

يقُولُون لِي: أفنيتَ كلَّ ذخيرةٍ وأنفقْتَ مالاً لا تجودُ به النَّفسُ
فقلت: نعم فرقتُ ما جمعتْ يدي وأرجو غداً يأتي بما أذهبَ الأمسُ

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٦٧.

(٢)المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٤)المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٥)المصدر السابق ،ص ٢٨٧.

ويعبر أسامة عن صبره على الأهوال مفتخراً بذلك فهو مقدام شجاع إن أُضرمت نار الحرب، ولا يشكو لأحد ما ألم به وهو كاظم لغيظه ومحتسب في ذلك وقد ورث ذلك الصبر عن آبائه وأجداده يقول[١]:

وما ضَعضَعتني الحادثاتُ وإنني ... كعهدِكَ: وعرُ الخُلقِ في الخطبِ وَعثُه
جريءٌ على الأهوالِ والموتُ محجمٌ ... مَريرُ القُوَى، والدَّهرُ قد بَان نَكْثُه
كظومٌ على غيظٍ يضيقُ به الحَشا ... فلستُ وإن آد اصطباري أبُثُّه
ولم أَرِثِ الصبرَ الجميلَ كَلالَةً ... ولكنهُ عن مرشدٍ ليَ إرثُه

ويفتخر أسامة بقوة تحمله للشدائد وصبره على خطوب الزمان حتى صار ذلك الصبر عادة اعتادها، يقول في ذلك[٢]:

وصفَ الصبرَ لي جهولٌ بأمري ... فارغُ البالِ من همومي وفِكري
مستريحٌ ما قلبُه مثل قَلبي ... لا، ولا دَهرهُ ظلومٌ كدهري
مالَهُ بالهمومِ عهدٌ ولا اضـ ... ـطُرَّ إلى الصبر باقتسارٍ وقهرِ
وأنا الدَّهرُ في خطوبِ زمانٍ ... اشربُ الصبرَ فيه من حُسنِ صَبري
صار لي عادةً فلو ضاقَ رحبُ الـ ... ـأرضِ عني ما ضاقَ بالصبر صَدري

وقد تحلى أسامة بصفة الوفاء والصبر وهو يحدث امرأة تعلق قلبه بها فيذكر لها ماضيه الجميل الرائع المنصَّع بالصفات الجميلة ثم يترفع بنفسه عن أن تسأل عن الزمان، بل الزمان هو الذي يسأل عنه، وكأن الزمان رواية عنه، يقول في ذلك[٣]:

إليكِ فما تَثني شُؤونُكِ شاني ... ولا تملكُ العِينُ الحسانُ عِنَاني
ولا تَجزعي من بَغتةِ البينِ واصبري ... لعلَ التنائي مُعقِبٌ لتداني
ولا تحملي همَّ اغترابي فلم أزلْ ... غريبَ وفاءٍ في الورى وبيَانِ
وفياً إذا ما خان جَفنٌ لناظرٍ ... ولم تَرعَ كفٌّ صُحبةً لِبنانِ
فللأُسْدِ غِيلٌ حيث حلَّت وإنما ... يَهابُ التّنائي قلبُ كل جبان
ولا تسأليني عن زماني فإنني ... أُنزِّهُ عن شكوى الخطوبِ لساني

---

(١)أسامة بن منقذ الديوان، ص ١٦٦.

(٢)المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٣)المصدر السابق ، ص ٢٧٨.

ولكـــن ســـلي عـــني الزمـــانَ فإنَّـــه يُحـــدِّث عـــن صـــبري علـــى الحـــدثان

وقد كان حبه عذرياً لا يحدث محبوبته إلا عن فروسيته وشجاعته وإقدامه مفتخراً بذلك أما الآن فقد أصبح كبير السن تسبقه عصاه متحطم القوى إلا أن آثار بطولته باقية عالية، ملازمة له، لأنه ليس كغيره من الناس بل هو من أولاد منقذ الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام هذا إذا اعتقدنا أن له محبوبة أصلاً، وإن كنت أرى أنه تخيل ذلك ليفيض بالحديث عن نفسه وسجاياه، يقول[١]:

نظَرتْ إلى ذي شيبةٍ متهدمٍ أفناهُ ما أفنى من الأعوامِ
يمشي وتَقدُمهُ العصا وقد انحنى فكأنها وتَرٌ لقوسِ الرَّامي
ورأتْ سِماتَ الأريحيَّةِ والنَّدى ودَلائلَ المعروفِ والإقدامِ
واستخبرتْ عني فقلتُ لها: امرؤٌ نائي المواطنِ من كرامِ الشَّام
نَبَتِ الديارُ به وضاقَ فَسيحُها عنه ففارقَها بغيرِ مَلامِ
قالت:"من اي الناس أنت؟" فقلت:مِنْ أولادِ منقذِ في ذرًى وسنامِ

وتتجلى روح الإباء في نفس أسامة فعلى الرغم من استعطافه لابن عمه ليفك أسر أخيه نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد بن علي الذي أسر من قبل الأفرنج، وقد أسر في طريق مصر قافلا إلى الشام وهو في موقف ضعف وشدة فهو يؤكد عزته وعدم طرقه أبواب الأمراء وليس ذلك من عادته ، يقول في ذلك[٢]:

وأنتَ أكرمُ من تُثنيهِ عاطفةُ الـ قـــربى ويرجـــوهُ للجُـــلّى ذووِ الرحـــمِ
ومن تكنْ أنتَ مولاهُ وناصرَهُ فكيـــف تَســـطو عليـــه كـــفٌ مُهتضـــمِ
لا تُحْوِجَنِّي إلى مَنِّ الرجال فما حمـلُ الأيـادي وإن أَعسَـرْتُ مـن شِـيمي
ولا تظنَّني أدعو سِواكَ ولا يَفُـــوهُ مُجتـــدياً إلا إليـــكَ فَمـــي
علامَ أرتشفُ الرَّنْقَ الأُجاجَ وقد رَوَّيـتَ كـلَّ صـدٍ مـن بحـرِكِ الشَّبِـم
أنا ابن عمكِ فاجعلني بفكِ أخي مـن أسـرهِ لـك عبـداً مـا مشـتْ قـدمي
فملكُ مثليَ لا يَغلو بما بَذَلَ الـ مُبتـــاعُ فيـــه ولا يُسْـــتَام بـــالقيمِ

---

(١)أسامة بن منقذ، العصا، ص ٤٥١.

(٢)أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ١٩٩.

ومع هذه الصيحات الوفية من أسامة لابن عمه إلا إنه لم يحركه الشعر، ولا سعى في خلاصه، ولا أعان عليه، وادخر الله تعالى أجر خلاصه وحسن ذكره للمولى الملك العادل نور الدين فوهبه فارساً من مقدمي الداوية، يقال له المشطوب، قد بذل الفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر، وهذا الإباء في نفس أسامة ظل ملازما له، فبعدما قلب له عمه "أبو العساكر سلطان" ظهر المجن لم يستطع البقاء في موطنه "شيزر" حيث قرر الخروج من ذلك الوطن الذي أحبه ودرج فيه وعاش وشب ونما ، يقول في ذلك[١]:

دعني وقَطعُ الأرضِ، دونَ معاشرٍ ... كلٌ عليَّ، لغيرِ جُرمٍ، مُحنق
تَغلي عليَّ صدورهم، من غَيظهم ... فتكادُ، من غيظٍ علي تَحَرَّقُ
أعيا عليَّ رِضاهمُ، فيئستُ من ... إدراكهِ، ما النجمُ شيءٌ يَلحق
قد أفسدوا عيشي عليَّ وعيشهم ... فأنا الشقي بهم، وبي أيضاً شَقوا
فضل الأقاربِ برُّهم وحنُوهم ... فإذا جفوني فالأباعدُ أَرفق

فكان أسامة راضياً بهذا الارتحال الذي نأى به عن الضيم. وهذا الإباء ممزوج بالحب في قلب أسامة الكبير ويتجلى ذلك حينما اتصل بحاكم دمشق "معين الدين أنر" وأصبح أسامة عنده من الأصدقاء المقربين والمعاونين له في شؤون دولته لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد أفسد الواشون العلاقة بينهما مما جعل أسامة يغادر دمشق قائلا في ذلك[٢]:

بلِّغْ أميري:"مُعين الدين" مأُلكَةً ... من نازحِ الدارِ لكن وُدُّه أَمَمُ
هل في القضية يا من فضلُ دولتهِ ... وعَدلُ سِيرتِه بين الورَى عَلَمُ
تَضييعُ واجبَ حقِّي بعد ما شَهدت ... به النصيحةُ والإخلاصُ والخدمُ
وما ظننتُكَ تَنسى حقَّ معرفَتِي ... إنَّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِممُ
ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينكَ: من ... وُدٍ وإن أَجلبَ الأعداءُ يَنصرم
لكن ثِقاتُك ما زالوا بِغِشِّهمُ ... حتى استوت عندكَ الأنوارُ والظُّلمُ
واللّهِ ما نَصَحُوا، لما استَشرتَهُمُ ... وكُلُّهم ذُو هوىً في الرأي مُتَّهَمُ

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص١٧٨.

(٢)المصدر السابق ، ص١٩٦

وقد ختم أسامة قصيدته بعد هذا العتاب الطويل بقوله: [١]

فاسلم فما عشتَ لي فالدهرُ طوعُ يدي وكلُّ ما نالنِي من بُؤسهِ نِعَمُ

ولا يخفى أثر أبي الطيب المتنبي على شاعرنا من خلال هذه القصيدة وغيرها فكلا الرجلين كان أبيا شهما عزيز النفس كريما، يقول الدكتور عبد الله الزهراني:"لجأ أسامة إلى ذاكرته الشعرية والتاريخية، فاستعاد تلك المواقف للمتنبي مع سيف الدولة، وجعل من نفسه متنبياً آخر، وجعل من ممدوحه سيفاً حمدانياً، وإذ كان الناقد يقف ضد أسامة برغم شاعريته، إذ لم يكن له خصوصية تذكر، وإن من حقه أن يضمن قصائده قصائد غيره ممن يحس أنها ترفد موضوعه، وتزيده بياناً وحسناً، ولكن في نظري أن أسامة هنا كان يستطيع التعبير شعرياً بما يتوافق مع مستوى الحدث، بل وأنا مع من عاتبه في هذا الإسراف في التضمين... إلى درجة إحساس الناظر أن أسامة قد ذابت شخصيته كلياً لدرجة أننا نسينا موقعه وما حدث له، لأنه قد أتى على كثير من أبيات المتنبي في قصيدته الميممة في عتاب سيف الدولة يضمن بعضها ويشطب بعض ألفاظها في مواضع عديدة"[٢].

وقد عدَّ العقاد هذا من العتاب المر بقوله :" وبادر أسامة بالرحيل قبل أن تلحقه كارثة من الكوارث التي تلاحق المغضوب عليهم بعد الرضا عنهم في بلاط ذوي السلطان وأنتجع الديار المصرية لعله يعوض فيها ما فاته من الحظوة عند أصحاب الشام... ثم ختم هذا العتاب المر بأبيات ضمنها سطوراً من قصيدة المتنبي في عتابه لسيف الدولة يصل فيها –على ديدنه– ما انقطع، ويرأب ما انصدع، ويستبقي للغد بقية من أمل ولو في غير مطمع"[٣].

ويقول الدكتور محمد الهرفي:"تحدث المؤرخون المسلمون عن وجود طائفة من أمراء المسلمين في فترة الحروب الصليبية لم تشارك في الجهاد، وكانت تمالئ الإفرنج على المسلمين يدفعها إلى ذلك رغبة جامحة في الحكم، والاحتفاظ به مهما كان الثمن المدفوع في سبيل ذلك، ولم ينس الشعراء المسلمون هؤلاء الأمراء فهجوهم هجاءً شديداً، وفضحوا أعمالهم أمام شعوبهم وطلبوا منهم

---

(١)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص١٩٨

(٢)عبد الله إبراهيم يوسف الزهراني، أسامة بن منقذ والتراث الشعري (دراسة في التأثير الشعري)، منشورات نادي الباحه الأدبي، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٣)عباس محمود العقاد، أسامة بن منقذ، مجلة العربي، العدد الثاني، جمادي الآخر، ١٣٧٨هـ- ١٩٥٩م، ص ٥٠.

الكفّ عما هم فيه، والعودة إلى دائرة الإسلام وكان "معين الدين أنر" حاكم دمشق من هذا الصنف، وقد عاتبه أسامة بن منقذ بهذه القصيدة جاء فيها: [١]

هبنا جَنَيْنا ذُنوباً، لا يكفِّرُها عُذرٌ فماذا جَنى الأطفالُ والحُرمُ
ألقيتَهُم في يدِ الإفرنجِ مُتَّبِعاً رضا عِدًى يُسخطُ الرحمنَ فِعلُهم

وأسامة هنا يقول:إذا كان رجال السياسة في نظر "معين الدين" قد ارتكبوا جرماً في حقه لا يغتفر، فما ذنب نساء المسلمين وأطفالهم الذين ذبحوا على أيدي الصليبين بمالأة معين الدين لهم ضد أبناء دينه"[٢].

فحرقة أسامة بن منقذ وحبه للجهاد هما الدافعان وراء ذلك العتاب. ومن أخلاق أسامة الرائعة ابتعاده عن النظم في غرض الهجاء وها هو ذا ينكر أن يضم شعره هجاءً،يقول عن نفسه "فلما علت سني، وانجلت جاهلية باطلي عني، ووضح لي أن الشعر لهو وهون، وأن الشعراء يتبعهم الغاوون، أكبرت خطئي وأعظمته، وندمت على تفريطي فيما نظمته، على أني بحمد الله ما فُهت برفث ولا هجاء..." [٣].

ولأسامة أبيات رائعة يفتخر فيها ببطولته الماضية ويتحسر عليها، فمن خلال الأبيات يرى أسامة أن قومه في حاجة له، فهو مثل البدر المفقود في الليلة المظلمة يقول في ذلك[٤]:

وهل يُنكرُ الأعداءُ فضلي وإنَّه لأسْيَرُ ذِكراً أن يُواريهِ الكَفْرُ
ألستُ الذي مازال كهلاً ويافعاً له المكرمات الغُرّ والنَّائلُ الغَمرُ
وخائضَ وقعاتٍ بوارقُها الظُّبا وواباكَ هاتيكَ البروقِ دَمٌ هَمرُ
يهولُ الردى مني تَقحُّميَ الرَّدى ويعتادهُ من جَأشيَ الرَّابطِ الذُّعرُ

وقد أبدع أسامة في افتخاره بتميزه وشهرته الواسعة نظير الفضائل والأخلاق النبيلة التي يتحلى بها وعبر عن ذلك مشبهاً نفسه بالشمس يقول في ذلك[٥]:

---

(١)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ١٩٧.

(٢)محمد علي الهرفي، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، دار المعالم الثقافية، ص ١٤١.

(٣)مقدمة ديوان أسامة بن منقذ، ص ٤٣.

(٤)المصدر السابق ، ص ٢٥٠.

(٥)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٩٩.

إن كنتُ في مصرَ مجهولاً وقد شُهِرتْ فضائلي بين بَدو الناسِ والحَضَرِ
فما على الشمسِ من عارٍ تُعابُ به إذا اختفى نُورها عن غيرِ ذِي بَصَرِ

ويفخر أسامة بتحمله للمصاعب وبكثرة ارتحاله وقبوله ورضاه وتسليمه بذلك[١]:

ولستُ آسى على التِّرحالِ عن بلدٍ (شُهبُ البُزاة سواءٌ فيهِ والرَّخمُ)[٢]
تَعلقت بحبالِ الشمسِ منه يدي ثم انثنت وهي صفرٌ مِلؤُها نَدمُ

" إن أسامة اتكأ في إبراز ذاته وفرض وجوده في غربته على ثلاث وسائل تجلت في شعره بوضوح، وهي:إباؤه واعتزازه بنفسه، وشجاعته في ميادين القتال ثم جلده وصبره على الشدائد والمصائب"[٣].

ويفخر أسامة ببطولاته الناصعة التي يشهد بها القاصي والداني، فلم يأسف ويبكِ على قطار الشباب الذي ولى منه لأجل اللهو والمجون والشراب والوصال، بل لأجل القتال في سبيل الله ونصرة دين الإسلام يقول في ذلك[٤]:

أسفي على عصرِ الشبابِ تَصرمَت أيامُهُ، لا بل على أيامي
لم أبكِهِ أسفا على مرح الصِّبا ووصالِ غانيةٍ وشُرب مُدام
لكن على جلدي وخوضي معْركاً يرتاعُ فيه الموتُ من إقدامي
بيدي حسامٌ كلما جردتهُ يومَ الوغى أغمدتهُ في الهام
ولصدرِ معتدلِ الكُعوب حَطَمتُهُ في صدرِ كبشٍ كتيبةٍ قَمقام[٥]
ونزالُ فرسانِ الهياجِ وكلُّهم فَرِقٌ[٦] لهولِ تقحمي ومُقامي
ولقتليَ الأُسْدَ الضواري نَحطُها كالرَّعدِ قعقعَ في متونِ غَمام
تلقى إذا لاقيتُها أَسدا له بأسٌ يبيحُ به حِمى الآجام
لو أنَّ عَين أبي زُبيدٍ عاينت فتكاتِه لأَقر بالإحجام[٧]
فحملتُ من بعد الثمانين العصا متيقناً إنذارَها لحِمامي

---

(١)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص١٩٨.

(٢)البزاة:جمع بازي، وهو نوع من الصقور الصائدة، والرخم:جمع رخمة، وهي طائر أبقع على شكل النسر خلقة، إلا أنه مبقع بسواد وبياض، موصوف بالغدر، وهذا الشطر مضمن من المتبني.

(٣)حلمي إبراهيم عبد الفتاح الكيلاني، الغربة في شعر أسامة، مؤتة للبحوث والدراسات، م٨، ١٩٩٢ م ، ص٩٥.

(٤)أسامة بن منقذ، العصا ، ص ٤٠٤.

(٥)القمقام – بالفتح – ويضم:السيد، كبش كتيبة: قائدها.

(٦)الفرق: أي الفزع.

(٧)أبو زبيد: هو حرملة بن المنذر الطائي، كان نصرانياً مخضرماً، وكان أوصف الناس للأسد.

ويحدثنا أسامة مفتخراً بأن قلبه وصبره إلفان مذ خلقا وهذا القلب لا يرهبه ولا يستخفه شيء بل هو صامد في وجه الأعادي يقول في ذلك[١]:

قَلبِي وصَبري إلفَان مُذْ خُلِقَا ... تَقاسما صادقينِ: لا افترقا
أمشِي الهُوَينى، والخطبُ فِي طَلَبِي ... يُوضِعُ طَورا، وتارة عنَقا
ما يطمعُ الدّهرُ أَن أذِلّ، ولاَ ... تَملأ قَلبي أهوالُهُ فَرَقَا
أحنُو ضُلُوعي في كلِّ نائبَةٍ ... على فؤادٍ لا يَعرفُ القَلَقَا
لا يزدهِيه[٢] خوفُ الحِمامِ، ولا ... عَهدتُه في مُلِمَّةٍ خَفَقَا

ويفتخر أسامة بقوة صبره في الخطوب، لأن له قلبا وعزيمة لا تستكين ولا تستسلم ويواجه تلك الأخطار بالصبر فيقول في ذلك[٣]:

قُل للخِطوبِ: إليكِ عنِّي، إنَّ لي ... في الخطبِ عَزماً مثل حدِّ المُنصل
لا يستكِينُ لحادثٍ مِن نكبةٍ ... طَرَقَتْ، ولا يَعيا بأمرٍ مُشكِلِ
يَلقى الخطوبَ، إذا دَجَت أهوالُها ... بالصَّبرِ حتى تَضمحلَّ وتَنجلِي

ويخاطب أسامة شعره ليظهر لنا أنه ليس من شيمه ظلم أحد سواءً أكان غنياً أم فقيراً، فلا يذكر عيب ذا، ولا ينتقص ذا. يقول في ذلك[٤]:

ظلمتُ شعري وليس الظلمُ من شيمي ... يُطيعُني حينَ أدعُوه وأعصِيه
يَهُمُّ أن يذكرَ القومَ اللئامَ بما ... فيهمْ فأزْجرهُ عنهم وأثَنيه
ولَيس من خُلُقي ثَلبُ الغَنِيَّ، وإنْ ... جنى ولا ذكرُ ذي نقصٍ بما فيه

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٦٢.

(٢)يزدهيه : الازدهاء الاستخفاف.

(٣)أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٦٩.

(٤) المصدر السابق ، ص٢٩٣.

الفصل الثالث:فخره بقبيلته ونسبه:

أجمع الذين كتبوا عن أسامة وأسرته، أن هذه الأسرة والقبيلة كانت أسرة كريمة يقول الأصفهاني:"كانوا من بيت المجد والحسب، والفضل والأدب، والسياسة والسماحة، والحصافة والفروسية والقيافة والإمارة والرئاسة"[١]، وقال ابن خلكان:"من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم"[٢]، وأضاف:"وقلعة شيزر معروفة بهم[٣] فمن صفات أسرة أسامة، السماحة والحصافة والفروسية والإمارة والشجاعة والعلم، ويقول عنهم ابن خلكان أيضاً:"رجال كبار كلهم فارس وشجاع وكلهم شاعر وأديب ، كانوا ملوكا في أطراف حلب بالقرب من قلعة شيزر وعند جسر بني منقذ المنسوب إليهم وكان ملوك الشام يكرمونهم ، ويجلون أقدارهم، وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم وإن منهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء [٤] .

وبعد أن ملكوا شيزر حافظوا على هذه الإمارة فقد كانوا ينقذونها في كل مرة من يد الطامعين، رغم أنها كانت عرضة لغزوات متتابعة من بني كلاب في حلب، ومن الإسماعيلية بمصر، ومن الروم البيزنطيين ومن الإفرنج الصليبيين إلا أنها بقيت صامدة مستأسدة. فكانت قبيلته عريقة في النسب متأصلة في الحسب والمجد ، وكان بنو منقذ يقولون الشعر[٥] فهم "فرسان ميدانه وشجعان فرسانه وأرواح جثمانه"[٦] وكانوا يحفظون الجار، وقد فَضَل جده ديار بكر والشام وسادها[٧] ، وآل منقذ يتوارثون المجد ويرثون الفضل[٨] ، أهل بيت المجد والحسب والفضل[٩] وقد مدحهم الشعراء:فمدح مجد العرب العامري أبا العساكر سلطان[١٠]، ومدح ابن حيوس

---

(١) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام، تحقيق:شكري فيصل، ٤٩٧/١.

(٢)أبو العباس شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق:د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١ /١٩٦.

(٣) المصدر السابق، ١٩٩/١.

(٤) المصدر السابق، ١٥٥/٢.

(٥)العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ٤٩٧/١.

(٦) المصدر السابق ١ / ٤٩٧.

(٧)المصدر السابق، ٤٩٤/٢.

(٨) المصدر السابق، ١ / ٤٩٨.

(٩) المصدر السابق، ٤٩٨/١.

(١٠) العماد الأصفهاني ، خريدة العصر وجريدة القصر ،٤٩٨/١.

جد أسامة سديد الملك[١] ، الذي كان مطاعا في قومه. وتقدم والد أسامة عن رهطه بحسن تدبيره وقد أسنّ وعمّر وأعقب أولادًا نجباء كراما أجوادا، وكتب مصحفاً بماء الذهب بخط يده[٢] ، وكان جده قد ملك حصن شيزر وحصّنه[٣] وبقيت هذه الأسرة في إمارة شيزر قرابة الأربعين ونيّف إلى أن جاءت الزلزلة سنة ٥٥٢هـ، فهدمت مدينة شيزر وقتلت كل من فيها من بني منقذ ولم يسلم منهم إلا من كان خارج المدينة، وكان ممن نجا أسامة وإخوته الذين أُخرجوا منها، يقول مجد العرب العامري:"ومازال بنو منقذ مالكي شيزر ومعتصمين بحصانتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة، فخربّت حصنها، وأذهبت حسنها، وتملّكها نور الدين عليهم وأعاد بناءها"[٤]. وقد بسط آل منقذ نفوذهم على إمارة شيزر في سنة (٤٧٤هـ) ومكثوا بها إلى أن أصابتها الزلزلة العظيمة سنة (٥٥٢هـ)، فتكون مدة إمارتهم عليها نحو ثمان وأربعين سنة هجرية. من هذه الأسرة الشريفة المتسامية في الحسب والمجد ينحدر منها الشاعر أسامة بن منقذ الذي أحب قومه وأسرته وإمارته، ودافع معهم ضد المعتدين عليها، وظل يدافع عن قبيلته وأسرته وإمارته بسيفه وقلمه، ويفتخر بهذه الأسرة العريقة المتصفة بالشجاعة والسماحة والأدب والعلم والفروسية... وينشد أشعاره فيها رغم اضطراره للخروج منها بعد أن قلب له عمه أبو العساكر سلطان ظهر المجن وأمره بالخروج من موطنه وديار آبائه وأجداده كما ذكرنا سابقاً، إلا أن ذلك لم يزد أسامة إلا حباً وتعلقاً وافتخاراً بتلك القبيلة وذلك النسب العظيم ولا أدل على ذلك من حديثه عنهم حينما بكى قومه بعد أن أصابتهم الزلزلة فألَّف في ذلك كتاباً أسماه "المنازل والديار"جمع فيه أشعارا وقصائد في ذكر الأهل والديار والدِّمن والرسوم والأطلال.

وقد افتخر أسامة بقومه وهو يرى أنهم فرسان لا يهابون الموت، ويقبلون على خوض المعارك كما يجيرون الخائف، ويكرمون الضيف، ويخافهم الأعداء يقول مفتخراً[٥]:

النـــازلينَ بكـــلِ ثغـــرٍ خـــائفٍ ... والآمنـــــينَ مَعَـــــرّةَ الجـــــرّام

وإذا أتـــاهم مســـتجيرٌ خـــائفٌ ... آوى إلى حـــــرمٍ مـــــن الأحـــــرامِ

وإذا أنـــاخَ الســـائلونَ بجـــوِّهم ... عـــادوا ثقـــالَ الظهـــرِ بالأنعَـــام

---

(١)ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، ٢٢٢/٥.

(٢) المصدر السابق، ٤٩٤/٢.

(٣) المصدر السابق، ٢٢١/٥.

(٤) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ٤٩٧/١ .

(٥)أسامة بن منقذ، العصا، تحقيق:حسن عباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤٥٢.

يتهللـــــونَ طلاقـــــةً وتخـــــافُهم لِسُـــــطاهمُ الآســـــادُ في الآجـــــام

وفي نص آخر نراه يفتخر بقومه وبنسبه، ويذكر تحليهم بحسن وفادة الضيف وبشاشتهم، له فهم كرماء مع من يطرق بابهم ولهم سطوة في الحروب والمعارك[١]

مـــن آل منقـــذٍ الـــذين عِراصُـــهمْ مـــــلأى مـــــن الـــــزُّوارِ والطـــــرّاقِ
اللابســـين مـــن المكـــارم جُنّـــةً مـــا للمعايـــبِ غيرهـــا مـــن وَاقِ
يتهللـــون لـــدى النـــوالِ وفي الـــوغى يَســـــطُون بالإرعـــــادِ والإبـــــراقِ

ويقول أسامة مخاطباً والده بأنه من نسل كريم وبيت رفيع المقام فهم متصفون بأخلاق الأكارم كما أنهم يفكون رق العُناة، ويطلقون سراحهم. يقول[٢]:

يـا بـن الأُولى جمـعَ الفخـارَ لِبيـتهم مـــا شَـــتَّتُوهُ مـــن العَطـــاءِ وفرّقُـــوا
وتملّكـــوا رِقّ الأكـــارِمِ بالـــذي فَكُّـــوا بـــه رِقّ العُنـــاة وأطلَقُـــوا

ويرى أسامة أن قومه وصلوا إلى المكانة العالية في أخلاقهم، ولو عدّت مناقبهم لكادت الشمس تنكسف من كثرة تلك المناقب، ويرى أنه مهما أثنى عليهم وذكر تلك المناقب فلن يوفيهم حقهم لأنهم فوق الثناء وفوق الوصف، يقول في ذلك[٣]:

خُلـــقٌ نَمَـــاهُ أغَـــرُّ أروعُ ميـــ مـــونُ النقيبَـــة ماجـــدٌ أنِـــفُ
مـــن معشـــرٍ طابـــت مغارسُـــهُم فســـما لهـــم فـــوق السُّـــها شـــرفُ
قـــومٌ إذا عُـــدَّت منـــاقِبُهم كـــادت لهـــنّ الشـــمسُ تنكسِـــفُ
لـــو حـــاولوا الأفـــلاكَ مـــا قصُـــرتْ عنهـــا أَكفُّهـــمُ ولا ضَعفُـــوا
لاعيـــبَ فـــيهمْ غـــير أنهـــمُ في جُـــودِهم لُعِفَـــاتِهم ســـرفُ
أُثْـــني بعلمـــي فيـــهمُ وهـــمُ فـــوقَ الثَّنـــاءِ وفـــوق مـــا أصـــفُ

وتلاحظ استخدام شاعرنا لإذا قبل الفعل الماضي في:إذا عُدَّت لتحقق الأمر، ثم يستخدم المدح بما يشبه الذم في قوله:لا عيب فيهم.. ألخ، مع استعمال كاد في قوله:كادت لهن الشمس تنكسف، ليخرج من ممقوت المبالغة، وهذا ما يبين تجربته الشاعرية وتخيره لصوره.

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ١٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٥٧.

وفي الأبيات الآتية يفتخر أسامة بشجاعة قومه في المعارك، ووقت الأزمات والحروب، فقومه مثل الأسود التي تحمي عرينها وكفى به تشبيهاً، وأما في حال السلم فهم أهل عبادة وتبتل وذكر ثم يتاسف على فنائهم وانطواء ذكرهم وهذا هو حال الدنيا ، وكل إلى زوال يقول في ذلك[١]:

إذا حـاربُوا فالأُسـدُ تحمـي عرينَهـا ... وإن سـالموا كـان التَّبَتُّـلُ والـذِّكرُ
تُبـيحُ وتَحمِـي منـذ كانـت سـيوفهُمُ: ... يُبـاحُ بهـا ثغـرٌ ويُحمـى بهـا ثغْـرُ
مَضَـوا وانطـوتْ دُنيـاهُمُ وتصـرَّمتْ ... كـأنَّهُمُ مـا عُمِّـروا ولهـا نَشْـرُ
فلـم يبـقَ إلا ذكـرُهمُ وتأسُّـفي ... علـيهم ولـن يبقـى التأسُّـف والـذِّكرُ

ولا يزال يؤكد تلك الصفات الرائعة لقومه ويفخر بتحليهم بها فهم الفرسان الشجعان الحامون لشيزر، العارفون بحق الجوار، وقد كانوا ملاذا للخائفين ونجدة للفقراء ولليتامى، يقول:[٢]

إن أقفـرتْ شـيَزرٌ منهمُ، فهـم جعلـوا ... منيـعَ أسـوارِها بِيضـا وخُرصـانا
هـمُ حَمَـوْهَا فلـو شـاهدتَها وهـمُ ... بهـا، لشـاهدْتَ آسـاداً وخفَّانـا
كـانوا لمِن خـاف ظلمـا أو سُطا مَلِكٍ ... كهفًـا وللجـاني المطلـوبِ جِـيرانا
عَلَـوا بمجـدهمُ سـيفَ بـنَ ذي يـزنٍ ... كمـا علـت شـيزرٌ في العـزِّ غُمـدانا
كانـوا مَـلاذا لأيتـامٍ وأرمـلةٍ ... وبـائسٍ فاقـدٍ أهـلاً وأوطانًـا
إذا أتيـتهمُ ألفيـتَ شطـرهُمُ ... مسـترفدينَ وزوّارا وضِيـفانا
تـراهمُ في الـوغى أُسـدًا ويـوم نَـدًى ... غيثـاً هتونـاً وفي الظلمـاءِ رُهبانـا

وهذه الصفات هي قمة الكمال البشري وصدق الله حيث يقول : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[٣] . ويفخر أسامة بقومه وأسرته فقد كانوا معه في الشدائد يساعدونه ويعاونونه، وكانوا أيضا معه في وقت الرخاء، وقد أثبت لهم المكانة العالية على الرغم مما كان بينهم من خلافات، فهم عنده بمثابة السيوف التي يهاجم بها الفارس أعداءه ولايستغني عنها: [٤]

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٨.

(٣) سورة الفتح ، آية ٢٩.

(٤) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٥٩.

بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمُهُـــم وإن أروني مُنـــــــاواةً وشَـــــــنآنا
كـــانوا جنـــاحي فحصَّـــتهُ الخُطـــوبُ وإخـــ وانـي فلـــم تُبْـــقِ لي الأيـــام إخوانـــا
كـــــانوا ســـيوفي إذا نازلـــتُ حادِثـــةً وجُنّـــتي حـــين ألقـــى الخطـــبَ عُريانـــا
بهـــم أصـــولُ علـــى الأمـــرِ المهُـــولِ إذا عَـــرا وألقـــى عَبـــوس الـــدهرِ جـــذْلانا

ويفخر أسامة بأصله الطيب، عن طريق هذا الحوار الظريف الذي دار بينه وبين امرأة الغالب في الظن أنه تخيلها ليفيض إليها بما تجيش به نفسه فهي تستخبره عن موطنه وأهله فيجيب قائلاً[١]:

ورأت سِمـــات الأريحِيّـــةِ والنَّـــدى ودلائـــــل المعـــــروفِ والإقـــــدام
واســتخبرت عـــني فقلـــت لهـــا: امـــرؤٌ نـــائي المـــواطنِ مـــن كـــرامِ الشَّـــام
نبـــتِ الـــديارُ بـــه وضـــاقَ فَسـيحُها عنـــــه ففارقهـــــا بغـــــيرِ مَـــــلام
قالتْ:"من ايَّ الناسِ أنتَ؟" فقلتُ من أولادِ منقـــــــذِ في ذرىً وسَـــــــنام
مـــن معشـــرٍ أبـــداً تـــروحُ رمـــاحُهمْ بِـــــدمِ العِـــــدا مخضُـــــوبةَ الأعـــــلامِ
تحمـــي الـــبلادَ ســـيوفُهم وتُبـــيحُ مـــا تحميـــــهِ دونَهُـــــمُ ســـــيوفُ الحـــــامي

وقد كان قوم أسامة أهل بأس، وفرسان حرب، وملجأ لكل لاجئ، وغوثاً لكل ملهوف، يقول في ذلك[٢]:

كـــانوا شـــجىً في صـــدرِ كـــلِّ معانـــدٍ وقـــذىً يجـــولُ بعـــين كـــلِ مُحـــاول
غوثـــاً لملهـــوفٍ وملجـــأً لاجـــيءٍ وجـــــوارَ ربِ جرائـــــرٍ وطوائـــــلِ

ويفخر أسامة بسياسة قومه أثناء حكمهم لشيزر، فهم ينقذون أسراهم ويساعدون الملهوفين والفقراء من رعيتهم فيقول في ذلك[٣] :

بنـــو منقـــذٍ مـــا أُنقـــذوا مـــن زمـــانهم وكـــمْ أَنقـــذوا مـــن مُرهـــقٍ وأســـيرِ
فقـــد أقفـــرتْ مـــنهم ديـــارٌ عهـــدتُها غيـــــاثاً لملهـــــوفٍ وذخـــــرَ فقـــــير

---

(١)أسامة بن منقذ، العصا، ص ٤٥١-٤٥٢ .

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٣٥٥.

(٣)أسامة بن منقذ، المنازل والديار، تحقيق:مصطفى جحازي، ط٢، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ٢٠٤م، ص٧٧.

ويحدثنا عن سيرة بني منقذ، وعن السياسة العادلة التي لا يقيمها إلا ذوو الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة التي تصنع المجد المؤثّل، هذه هي سيرة بني منقذ، بدأ بها مرشدٌ جدُّ أسامة ومجد الدين والده. يقول مفتخراً[١]:

إنْ جُـرْتَ عـن نهـجِ الكـرامِ فمرشِـدٌ لـــك مرشـــدٌ بمكـــارِمِ الأخـــلاق
فاعمـد لمجـدِ الـدِّين تَلـقَ المجـدَ مـا لاقيتـــهُ، أكـــرِمْ بـــه مـــن لاقِ
فـإذا وصـلتَ إلى أغـرَّ مُحَجَّـبٍ مخلـــوقةٍ كفَّـــاهُ للإنفـــاق
فـــاربَعْ بَربـــعٍ لا يـــزالُ نزيـــلَهُ حُسْـــنُ الثنـــاءِ ، وخشـــيةُ الخـــلاّق

وقد كانت مدينة شيزر في أثناء حكم بني منقذ تنعم بالاستقرار والازدهار ورقي المعيشة وطيب الإقامة وجمال العمارة؛ مع أن البلاد الإسلامية كانت آنذاك تعاني من اضطرابات سياسية كثيرة بسبب الغزوات الصليبية والحروب الداخلية، فشمل الخراب والدمار كل البلاد المجاورة لها، بينما كانت شيزر مزدهرة خضراء في عهد بني منقذ، يقول في ذلك [٢]:

عَهـدتُك أُفْقـاً للسـعودِ وسـاكنِو ربوعـــكِ في أرجائـــكِ الأنجُـــمُ الزُّهـــرُ
وعصـــرُهم فصـــلُ الرَّبيـــعِ نضـــارةً فهـــل يَـــرْجِعَنْ لي ذلـــك الزَّمـــن النَّضْـــرُ

وبنو منقذ حامون لأرضهم التي عمروها، يستبسلون في الدفاع عنها ويبذلون دماءهم رخيصة فداء لها، يقول مفتخراً بهم[٣]:

هـــم الحـــامون والأشـــبالُ مســـلَمةٌ والملتقُـــون الـــرَّدى بالأوجِـــهِ الطُّلُـــقِ

وفرسان شيزر من بني منقذ معتادون على خوض المعارك والحروب الهجومية والدفاعية، فهم فرسان بحق لا يهابون الموت فلديهم سيوف بتارة قاطعة[٤]:

تبُـيحُ وتحمـي منـذ كانـت سُـيوفُهم يُبـاح بهـا ثغـرٌ ويُحمـى بهـا ثَغـرُ

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص١٨٢.

(٢)أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ص١٥١.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص١٧٩.

(٤)المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

ويؤكد أسامة هذه النعمة التي كان فيها قومه، وهي نعمة الاستقرار والأمن ويثبت لقومه الشجاعة، فكم من ملوك حاولوا الاستيلاء على شيزر إلا أنهم كانوا دائماً ما يعودون خائبين فمن ذا الذي يستطيع أن يلج عرين الأسود؟ يقول في ذلك[١]:

أنظر منازلَ آلِ منقذَ إنها عِظَةُ اللبيبِ وعبرةٌ للناظِر
كانوا بها في نعمةٍ محروسةٍ بمكارمٍ وذوابلٍ وبواترِ
ما رامها مَلِكٌ ولا ذو قدرةٍ إلا انثنى عنها بقلبٍ طائرِ
مُتَلهِّفاً ما اسطاعها ومن الذي يَلجُ العرينَ على الهِزَبرِ اخادِر؟!

وفي حوار لأسامة في بكائه على أهله، ودمار موطنه يفتخر بأن قومه كانوا ملجأ، وحصنا منيعا له، وعضدا في الخطوب[٢]:

يقولون قد أَعْوَلتَ في الدارِ ما كفا وليس على ربعٍ عفا بِمُعَوَّلِ
فقلتُ نعم : هذي ديارٌ عهدتُها عرَينَ أُسودي في الخطوب ومعقِلي

وقد كانت ديارهم في مكانة عالية فقد اتصف ساكنوها من بني منقذ بالكرم والجود والشجاعة وفيها فرسان جمعوا المكارم والعلا والبأس والقوة مع تواضع فريد، ولين جانب. وهي معادلة صعبة لا يتصف بها إلا الفرسان من بني منقذ يقول في ذلك[٣]:

دارٌ على قُلَلِ الجبالِ تفجَّرتْ فيها بحارُ فضائلٍ ومكارمِ
فيها الندى والجودُ حقًا لا الذي كنا نَحدَّثُ عن سماحةِ حاتِمِ
وفوارسٌ جمَعُوا المكارِمَ والعُلى لينُ التَّواضعِ في قلوبِ ضراغ [٤]

(١)أسامة بن منقذ، المنازل والديار ، ص ٢٧ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤.

(٣)المصدر السابق، ص ٣٠٥ .

(٤) ضرغام:واحد ضرغامة وضرغم: الأسد الضاري الشديد.

الباب الثاني

"الدراسة الفنية"

الفصل الأول : الألفاظ والتراكيب

الفصل الثاني : الأفكار والمعاني

الفصل الثالث : العاطفة

الفصل الرابع : الصورة الفنية

الفصل الخامس : الموسيقى

الفصل الأول:الألفاظ والتراكيب

للألفاظ أهمية كبيرة عند الشاعر، فهي ميدان الشاعر، على أرضيته تتم ولادة القصيدة ، فمن خيوطها ينسج الشاعر أديمه، ومن شراينها تتدفق الحياة في عروقه، وعلى قدر ثرائها تتوافر حيوية دافقة في قلب الكيان الشعري،(١) ولغة الشعر تختلف باختلاف تجارب الشاعر ذاتها تلك التجارب التي تؤدي إلى إبداع قصيدة لها لغتها الخاصة بها، ولا تشاركها تركيباتها لغة الشاعر في قصائده الأخرى(٢) " والألفاظ هي أداة التعبير الأدبي فالأديب يستخدمها للإفصاح عن مكنون نفسه فتأتي مشحونة بانفعالاته العاطفية المعبرة عما يريده(٣)، والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، عندئذٍ تكون أداة لنقل التجربة من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر تؤدي وظيفتها ضعيفة أو كاملة، بحسب طاقتها(٤) وعلى الأديب أن يراعي عند تشكيل لغته أن يختار لكل معنى ما يناسبه من الألفاظ والتراكيب ، ليؤديه في أحسن صورة، وقد نص عبدالقاهر الجرجاني على هذا الجانب بقوله:"اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضرباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى(٥) .

كما أن لكل شاعر منهجه وطرائقه في التعامل مع الألفاظ ونظمها، فطريقة الشاعر في بنائه ترجع الى درجة إحاطته بالظواهر اللغوية ،كالاشتقاق – مثلا – والترادف ، والتضاد ، وترجع كذلك إلى تنبهه للخصائص الدقيقة لمعجمه الشعري الذي يجعله قادراً على التوحد مع الحدث إذا استطاع أن يختار ألفاظه لتكون قريبة إلى طبيعة الإحساس الانفعالي المصاحب للمعاناة"(٦) فألفاظ الشعر" متعلقة بعالم الشاعر والكلمة عالم صغير منضوٍ في ظل العالم الأكبر الذي هو الشاعر الذي يفرغها من معناها التقليدي ويشحنها بمعنى جديد، حتى أصبح لكل شاعر

---

(١)عدنان حسين قاسم، التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، الدار العربية للنشر،١٤٢١هـ،٢٠٠٠م، ص٣٩

(٢) عدنان حسين قاسم، لغة الشعر العربي، الدار العربية للنشر، مدينة نصر ، ط١ ، ٢٠٠٦م ، ص٨٥

(٣) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط١ ، جدة ، دار المدني، ١٤٣١هـ ، ص ٤

(٤) لطفي حيدر ، محاولات في فهم الأدب ، ط٢ ، لبنان ، بيروت ، دار المكشوف، ١٩٥٤م ص٥١.

(٥)عبد القاهر الجرجاني الرسالة الشافية (ضمن كتاب دلائل الإعجاز) تحقيق:محمود محمد شاكر، دار المدني، ١٩٨٤م ص٥٧٥.

(٦) عدنان حسين قاسم، لغة الشعر العربي، ص٨٨.

قاموسه الخاص به"[١] وقد اهتم أسامة بن منقذ واعتنى باللفظ عناية فائقة نلمح ذلك في نصحه للشعراء في كتابه "البديع" حيث يقول:"استعمل الألفاظ العربية دون الحضرية، فإن الشيح والثمام في الشعر أحسن من الخوخ والرمان"[٢]

ويؤكد أسامة بن منقذ أهمية اللفظ وأنه خدم للمعنى المراد إيصاله يقول في ذلك:"ولا تجعل كل الكلام شيئاً واحداً، بل تفصّله، لتكون كل كلمة مكانها، وإلا كان كالجسد المعكوس الأعضاء. واعلم أن الألفاظ أجساد والمعاني أرواح فإذا قويت الألفاظ، فلتقو المعاني، ليحمل بعضها بعضاً"[٣]

وهو يحذر أيضاً من التعسف في استعمال اللفظ والإسراف في طلب الغريب يقول:"واترك التعقيب، والتقعير، وهو التكلم بالوحشي، مثل قول زهير:وليس بحلقد، وقول أبي تمام يجهضمها، ولا تعقد المعاني، فتحوج إلى كشف، فإن أحسن الشعر ماسبق معناه إلى القلب مع لفظه إلى السمع"[٤] وقد شهد له معاصروه بفخامة شعره وقوة ألفاظه وتراكيبه فقال فيه العماد:"أسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه أمارة الإمارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة"[٥]، ومادامت الألفاظ والتراكيب بهذه الأهمية والعناية، فعلينا أن نقلب ذلك في فخر شاعرنا أسامة بن منقذ وفروسية وننظر فيها، لقد استغل شاعرنا ما وهبه الله –عز وجل– من معرفة باللغة وأسرارها فعمل على تفجيرها عيوناً وينابيع شعرية عذبة في تناولها، سهلة في ألفاظها، قوية في مدلولاتها، وأظن أن ألفاظ شعره لم تتغير عن غيره من الشعراء الفرسان، ولعل ذلك يرجع إلى أن موضوع الفخر والفروسية ليس بالموضوع الجديد على الشعر العربي، ولكن يظل له حق التميز بالصياغة والتشكيل، فالشاعر يحاول أن يجهد نفسه إلى أن يصل بألفاظه وتراكيبه وعباراته إلى شكل مغاير ومختلف عن غيره من الشعراء، ولذا نجد أن شخصية أسامة، وبطولاته قد أثّرت على ألفاظه وتراكيبه، فقد غلب عليهما الصبغة الحربية والفروسية وارتفاع درجة الفخر بما يناسب الأحداث التي مرت به ولعل من أبرز تلك المظاهر:

---

(١) عبدالحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، ص٣٤١

(٢)أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ص ٢٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٩٧.

(٥) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ٤٩٨/١.

١)ظهور الألفاظ الحربية في شعره بشكل كثيف وذلك لقربها من شخصية الشاعر الفارس، كما أنها تمثل المجتمع الذي عاشه فقد كان مجتمعاً حربياً بالدرجة الأولى فوعي:"الشاعر بمجتمعه يفتح عينيه على مختلف الأوضاع الاجتماعية والفكرية، فيضعها -بعملية غير مباشرة- في منطقة اهتماماته الحياتية لأن المبدع إذا احتلت فكرة ما حيزاً في منطقة وعيه الجمالي، فإنه يصدر عنها بطريقة تلقائية[١]، وقد برع شاعرنا في استخدام الألفاظ الدالة على الفخر والفروسية، والناظر في شعره يجد ذلك واضحاً جداً، فقد كانت ألفاظ الحرب وأدواته من أكثر الألفاظ دوراناً في شعره، ومن أبرزها لفظة الفارس، والخيل، والرمح، والقنا، والسيف، وقد يصعب إحصاء تلك الكلمات لكثرتها ولكني سأذكر بعضها، فقد جاءت لفظة السيف عند شاعرنا ما يقارب ستة وعشرين مرةً يقول[٢]:

فلما أبادتهم سُيوفكَ وانجلتْ عن الأرضِ منهم ظلمةٌ ومظالمُ

وقال أيضاً[٣] :

وهل أنا إلا السيفُ فلَّل حدَّهُ قراعُ الأعادي ثم أرهفَهُ الصقلُ

وقوله[٤]:

ولم ادَّخر للسيفِ إن نابَ أو نبا وللخطبِ إلا صارمي وسِناني

وقد وردت مرادفات أو أسماء أخرى للسيف كالمهند والبيض والصارم ، يقول في ذلك[٥]:

بصارمٍ من رآهُ في قَتامٍ وغًى أفْرِي به الهامَ ظنَّ البرقَ قد لمحا

وقوله [٦] :

قد كنت مسعرَ حربٍ كلما خَمدت أضرمتُها باقتداحِ البيضِ في القُلل

وقوله[٧]:

قد كان كفّي مألفاً لمهندٍ تُعَرى القلوبُ له وتُفرى الهامُ

---

(١) عدنان حسين قاسم، لغة الشعر العربي، ص ١١٣ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص٢٧٥

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩١

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧٩ .

(٥) المصدر السابق، ص ٢٥٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

كذلك ظهرت الألفاظ الحربية وأدوات القتال كالفرس والرمح والسهم، وظهر أيضا وصف المعركة ووصف الجيوش، وسألمح إلى بعضٍ من تلك الألفاظ، فمن ألفاظ الخيل التي وردت في شعره قوله[١]:

ألِفتْ مقارعةَ الكماةِ جيادُه وسُرى الهواجرِ لايَني ذَمَلَانُه

ويقول في ذكر الرماح[٢]:

ولأسمرٍ لدنِ الكعوبِ وجَارُه حيث استمرّ الفِكرُ والأوهامُ

ومن قوله في السهام[٣]:

ترى كلَّ شهمٍ في الوغى مثل سهمهِ نفوذاً فما يَثنيهِ خوفٌ ولا كُثرُ

ومن قوله في ذكر الحرب والجيش[٤]:

نسيرُ إلى الأعداء والطيرُ فوقنا لها القوتُ من أعدائنا ولنا النصرُ
فبأسٌ يَذوبُ الصخرُ من حرِ نارهِ ولُطفٌ له بالماء ينبجسُ الصخرُ
وجيشٌ اذا لاقى العدَّو ظنتهم أسودَ الشرى عنَّت لها الأُدمُ العفرُ

ومن قوله في المعارك أيضاً[٥]:

لو سرتَ في عرض البسيطة طالباً رجلاً خبيراً بالحروبِ مُجرِّبا
عانى الحروبَ مجاهراً ومخاتِلاً طفلاً إلى أن عاد همَّا أَشيبا

٢)وكما وجدت الألفاظ والتراكيب الحربية وجدت الألفاظ التفاخرية في فخر وفروسية أسامة بن منقذ "يثير الفخر نازع : كالإعجاب بالنفس أو الشعور بالنقص، أو إثارة العازمين أو تحدي المعارضين...وذات المفتخر هي أولى الذوات بأن تكون ذلك المحور" [٦]

ومن الألفاظ والتراكيب التفاخرية في فخر الشاعر بنفسه ، قوله [٧]:

أنا تاجُ فرسانِ الهياجِ ومن بهم ثبتت أواخي ملكِ كل مُتوَّجِ

---

(١) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٢ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٣ .

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٣ .

(٥) أسامة بن منقذ، العصا، ص ٢٦٠ .

(٦) عز الدين علي السيد ، التكرير بين المثير والتأثير ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط ١ ، ص ١٧٦.

(٧) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٥٩.

ورجل مثل أسامة بن منقذ كان أميرا وفارسا وأديبا عاش حياته يصارع الأسود، ويقاتل الأبطال، ويقود الجيوش ويجالس الملوك لايستنكر منه الفخر بنفسه والاعتداد بها والإدلال بما لها من فضائل وخصال، وكل ذلك يأتي باستخدام الألفاظ والتراكيب، فانظر حيث يقول[١]:

هل بزّني للخطبِ سوى وفْري الذي ... كان مُباحا للنّوالِ وللنّدى
إن جمعوا المالَ فَأَوْعَوا أتلفتْ ... يدي طَرِيفَ ما حوتْ والتَّلِدا
هُمُ يرونَ المالَ ذُخراً باقياً ... وإنما ذُخرُ الفتى أن يُحمدا

ومن قوله في شجاعته[٢] :

وكنتُ إن ثوَّبَ داعي الوغى ... لبيتهُ بالطعنِ والضَّرب
أنازلُ الأقرانَ يُرديهمُ ... من قبلِ ضَربي هامَهُم رُعْبي

فلنتأمل جميعا قوله:"إن ثوب داعي الوغى" ، وقوله :" أنازل الأقران " :" يرديهم " ولفظتي "الضرب والرعب " كلها جميعا ألفاظ توحي بالفخر بالنفس والشجاعة وهذا التركيب الرائع:"يرديهم من قبل ضربي هامهم رعبي " .

أي أن رعبهم وخوفهم منه يرديهم قبل أن يقاتلهم، فنبرة الفخر تظهر واضحة من خلال ألفاظ وتراكيب شاعرنا، فمن ذلك قوله أيضا [٣] :

سل بي كُماة الوغى في كلِّ معركةٍ ... يضيقُ بالنفس فيها صدرُ ذي الباس
يُنبّئُوك بأني في مضايقِها ... ثبتٌ إذا الخوفُ هزَّ الشاهقَ الراسي

فاستعمال الشاعر للفعل (سل) يوحي بمدى ارتفاع درجة الفخر عنده، وما إن فرغ منه إلا وكانت الإجابة حاضرة وما أجمل الجواب "يُنبّئوك" لأن الجميع يشهد له بتلك الفروسية والشجاعة. ومن قوله في الثناء على نفسه وعلى قومه:وذلك عبر حوار طريف دار بينه وبين امرأة، وقد حاول أسامة أن يستخدم ألفاظا وتراكيب تبين مكانته ومكانة قومه، ومن هذه الألفاظ"الندى، الأريحية، الإقدام، السيوف، ذرىً " يقول في ذلك[٤]:

---

(١) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦١.

(٤) أسامة بن منقذ، العصا، ص ٤٥٨.

ورأت سمـــاتَ الأريحيَّـــة والنـــدى ودلائـــلَ المعـــروفِ والإقـــدام
واســتخبرتْ عــنِّي فقلــتُ لهــا:امــرؤ نــائي الــمَواطِن مــن كــرامِ الشــام
قالت:"من اي الناس أنت؟" فقلت:مِنْ أولادِ مُنقـــذِ في ذرىً وسِـــنام
مــن معشــرٍ أبــداً تَــروح رِمــاحُهم بــدمِ العــدا مخضــوبةَ الأعــلام
تحمــي الــبلادَ سيوفُــهم وتبــيحُ مــا تحميــه دُونهــم ســيوفُ الحــامي

هذه التراكيب والألفاظ مجتمعة جعلتنا نعيش مع أسامة ونشعر بصدق انتمائه وفخره بقومه ولا أدل على ذلك إلا قوله :"من معشر أبداً تروح رماحهم " وقوله:" تحمي البلاد سيوفهم"

٣) ومن مظاهر ألفاظ أسامة بن منقذ وتراكيبه في أبياته حديثه بلغة الماضي حيث أخذ يعدد مآثره القديمة، وذلك باستخدام لغة الماضي، ولعل استدعاءه للفعل الماضي يوحي بمقدار الألم والحسرة التي يعيشها، فالهروب إلى الماضي محاولة من الشاعر لرفض الواقع، وقد كانت الألفاظ الماضية واضحة جلية في فخر وفروسية أسامة من ذلك قوله[١]:

قـد كنـتُ مِسعرَ حربٍ كلما خَمدت أضْـرمتُها باقتـداحِ البـيضِ في القُلـل
همــي منــازلةَ الأقــران أحســبَهُم فرائســي فهــمُ مــني علــى وجــل

يحاول الشاعر استحضار الماضي الذي كان يتمتع فيه بفروسيته، فهو الفارس الذي كان يسعر الحروب ولا يخشى الأهوال، فذلك الماضي هو الذي يخفف عنه وقع مصاب الحاضر، ومن ذلك قوله[٢]:

قــد كــان كفّــي مألفــاً لمهنــدٍ تُعــرى القلــوبُ لــه وتُفــرى الهــامُ
ولأسمــرٍ لــدْنِ الكعــوبِ وجــارُه حيــث اســتمرَّ الفكــرُ والأوهــام

فالشاعر يتأمل في حاله الذي تغير، وكأنه يتمنى أن يعود لتلك الحال لذلك يلح على استحضار تلك البطولات القديمة، وذلك في مثل قوله[٣]:

رجــلاي والســبعونَ قــد أوهنــتْ قُــواي عــن سَــعي إلى الحــرب
وكنــتُ إن ثَــوَّب داعــي الــوغى لبَّيتُــه بالطعــنِ والضّــرب

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٠٥
(٢)المصدر السابق ، ص ٣٢٢
(٣)المصدر السابق، ص ٢٥٨

وقوله أيضاً[١] :

حطمتْ قوايَ وأوهنتْ من نهضتي وكذا بمن طلبَ السَّلامة تَفعلُ

كم قد شهدتُ من الحروبِ فليتني في بعضها من قبلِ نَكسيَ أُقتلُ

٤) ومن مظاهر ألفاظ وتراكيب أسامة في فخره وفروسيته التكرار لبعض الألفاظ وذكره لبعض الأماكن، فأما التكرار فهو "أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس بمثير ....واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان، فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتماماً عنده، وهو يحب في الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه، أو من هم في حكم المخاطبين ، ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار"[٢]

وقد يكون اللفظ مستحسناً في موضعه يقول ابن رشيق:"وللتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني"[٣] ومما جاء في شعر أسامة مكرراً قوله[٤]:

فسلْ كُماة الوغى عني لتعلم كم كَربٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بي انفسحا

وقوله[٥]:

سل بي كُماةَ الوغى في كل معركةٍ يضيقُ بالنفس فيها صدرُ ذي الباسِ

وقوله[٦]:

أخوضُها كشهابِ القذف مبتسماً طلقَ المحيا ووجهُ الموتِ قد كَلَحَا

وقوله[٧]:

أخوضُها كشهابِ القذفِ يَصحبني عضبٌ كبرقٍ سرى أو ضوءِ مقباسِ

فنلاحظ تكرار الجملة الفعلية المصدرة بـ "سل" لما تحويه تلك اللفظة من إثبات القوة والشجاعة له من خلال سؤال الأعداء عن تلك البطولة ، ونلاحظ تكرار الجملة الفعلية

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٢١

(٢)عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، ص ١٣٧

(٣) ابن رشيق، العمدة، ٢ / ٧٣ .

(٤)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٥٩

(٥)المصدر السابق، ص ٢٦١

(٦)المصدر السابق، ص ٢٥٩

(٧)المصدر السابق، ص ٢٦١

المصدرة بالفعل "أخوضها كشهاب القذف" فقد دلت تلك العبارات بتركيبها واستطاعت أن تكوِّن لنا صورة حية تظهر مقدار إقدام أسامة وسرعته في الحروب.

وأما ذكر أسامة لبعض الأماكن وبعض القواد الذين انتصر عليهم في المعارك فلعل الضرورة هي التي قادته لذلك "حتى يكون لشعره في النفس أثر كبير، وحتى تحقق له القيمة التاريخية"[١]

من ذلك قول أسامة[٢] :

وفي سجننا "ابن الفُنْشِ" خيرُ ملوكِهم ... وإن لم يكن خيرٌ لديهم ولابِرُّ

قتلنا "البرنسَ" حين سارَ بجهلهِ ... تحفُّ به الفرسانُ والعسكرُ المَجْرُ

ومن قول أسامة في ذكر المدن[٣]:

فتحنا" الرُّها" حين استباحَ عداتُنا ... حماها وَسَنَّى مُلكَها لهم الخَتْرُ

ونحن فتحنا" تلَّ باشرَ" بعدها ... وقد عجزتْ عنه الأكاسرةُ الغُرُّ

فنلاحظ ذكره "ابن الفنش " "والبرنس "وهما من قواد الإفرنج ونلاحظ أيضا ذكرا لبعض المدن مثل: الرها وتل باشر ، وغيرها من المدن التي استطاع المسلمون فتحها .

لقد اتسمت ألفاظ وتراكيب أسامة بن منقذ بالسهولة والوضوح وكانت مألوفة واضحة دارجة الاستعمال في الأدب واللغة، ويندر أن تجد ألفاظا غريبة وإذا ما وجدت مثل هذه الألفاظ فإنها تكون في وصف الحرب وذكر أدواتها من خيول وجيوش وأسلحة وركوب، كما أن شاعرنا لم يغرق في استعمال المحسنات البديعية مع ولع شعراء عصره ولا يعني ذلك أن أسامة أعرض عنها تماماً أو أن شعره خلا منها، لكنه استعملها بقدر وباعتدال وبلا تكلف لأنه كان شاعراً مطبوعاً. من ذلك قوله[٤]:

أغدو لنارِ الوغى في الحرب إن خمدتْ ... بالبِيض في البَيض والهاماتِ مُقتَدحَا

---

(١) فؤاد حسن حسين أبو الهيجا ، شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ٢٤١.

(٢) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٢٥٢

(٣)المصدر السابق ، ص٢٥٤

(٤)المصدر السابق، ص ٢٥٩ .

حيث جانس بين البيض والبيض، فالأولى بمعنى السيوف والثانية:الخوذة أو غطاء الرأس.

وقوله[١]:

أبى الله إلا أن يكـــونَ لنـــا الأمـــرُ لتحيـــا بنـــا الـــدنيا ويفتخـــرَ العصـــرُ

فهنا تصريع بين "الأمر" و "والعصر"، ومن قوله في قصيدة أرسلها إلى صلاح الدين الأيوبي[٢] :

لازال يـــا مَـــلِك الإســـلام في نعـــم قرينُهـــا المســـعدان : النَّصـــرُ والظفـــرُ

تُـردي الأعـادي وتستصـفي ممـالكَهم وعونُـــك الماضـــيان : الســـيفُ والقـــدرُ

فنلاحظ فن التطريز، في تلك الأبيات والتطريز:" أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن فيكون منها كالطراز من الثوب"[٣] . وهذه المحسنات البديعية كانت قليلة فقد كان أسامة حريصا على سلامة شعره ، وقد عرّف التكلف والتعسف بقوله[٤] : "وهو الكثير من البديع كالتطبيق والتجنيس في القصد لأنه يدل على تكلف الشاعر لذلك وقَصْده إليه. وإذا كان قليلاً نُسِب إلى أنه طَبْعٌ في الشاعر ، ولهذا عابوا على أبي تمام لأنه كثر في شعره، ثم أنهم استحسنوه في شعر غيره لقلته، وقالوا:إنه بمنزلة اللثغة تستحسن، فإذا كثرت صارت خرساً، والشية تستحسن في الفرس، فإذا كثرت صارت بلقاً، (والجعودة تستحسن في الشعر، فإذا كثرت صارت قططاً، ولهذا قالوا:خير الأمور أوسطها، والحسنة مابين الشيئين، والفضيلة بين الرذيلتين) فأسامة يدعو إلى التوسط في استعمال المحسنات البديعية وقد ألمح إلى ذلك في مقولته السابقة ومن هنا تظهر أهمية الألفاظ والتراكيب في فخر أسامة وفروسيته التي اتسمت بالسهولة والوضوح إلا ما كان من ذكر أمور الحرب وأدواتها، وظهرت في ألفاظه وتراكيبه الألفاظ الحربية لاقترابها من شخصيتة ومجتمعه كما برزت اللغة التفاخرية من خلال فخره بذاته وبخصاله وبذكر فضائل قومه، وقد حاول أن يتكئ على الفعل الماضي في ذكر أمجاده وفروسيته ولم يغرق في استعمال المحسنات البديعية بل جاءت في شعره دون تكلف أو تصنع، لذلك استطاع أن ينقل لنا تجربته في صدق فني باستخدام الألفاظ والتراكيب المعبرة عن فخره وفروسيته.

---

(١)أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٥١ .

(٢) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ص٤٥٤.

(٣) أبو هلال العسكري، الصناعتين ، ص ٣٣٩.

(٤) أسامة بن منقذ، البديع، ص ١٦٣.

الفصل الثاني: الأفكار والمعاني:

تعد الأفكار والمعاني جوهر النص الأدبي، وأساسه الذي ينهض عليه بناؤه، ولا يكتب الخلود والبقاء لأي نص من النصوص الأدبية والعلمية إلا إذا استقر في مضمونه فكرة، وإلا كان خواءً لا روح فيه، وهذه الفكرة ترتفع مكانتها لتحتل الصدارة كما في علوم النقد والتأريخ والاجتماع، وتتراجع قليلاً في حقل الشعر خاصة حيث تحتل العاطفة المرتبة الأولى ثم تأتي الفكرة لتكون بعد ذلك سنداً وعوناً، وذلك لأن الشعر "هو التصوير الخيالي للعواطف، لا التعبير اللغوي عن الفلسفات وليس الغرض منه التعليم بل التأثير"[١]. وأكثر الأشعار الساذجة التي تخلو من الفكرة تسقط وتبطل إلا أن ترزق حمقى يذيعونها هنا وهناك فتكون أعمارها بمدة أعمارهم ثم ينتهي بها الأمر إلى الذهاب وذلك أن الرواة ينبذونها وينفونها. والشاعر المبدع هو الذي يتناول الفكرة فيصبغها بعاطفته، ويمزجها بأحاسيسه ومشاعره، وينفث فيها من روحه ليبعدها عن الذهنية الخالصة، والفلسفة المجردة حتى يكتب لها الخلود، أما الشاعر الذي يتناول الفكرة فيعجز عن مزجها بعاطفته، وتلوينها بمشاعره" يجيء شعره أقرب إلى النظم منه إلى القريض، لأن الذهنية المسيطرة على منابع الفكرة تطمس رونق شعره، والجفاف يذهب بمائة، فلا نضارة ولا إحساس بالجمال"[٢].

وفيما يلي من الصفحات سأقف على المعاني والأفكار عند شاعرنا وفق الموضوعات التالية: الوضوح والغموض، والعمق والسطحية، الإبداع والاتباع.

---

(١) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة مصر ، ط ٨، ١٩٧٣م، ص ٢٣٠.

(٢) محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، مكتبة الحانجي، القاهرة، ١٣٩٨هـ، ص ١٢٤.

١- الأفكار والمعاني بين الوضوح والغموض:

يعد وضوح المعاني والأفكار وبعدها عن الغموض من المقاييس النقدية التي يقاس بها مضمون العمل الأدبي، والمراد بالوضوح:" أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد"(١)، ويرى ابن سنان الخفاجي:أن من شروط الفصاحة والبلاغة " أن يكون معنى الكلام واضحاً جلياً، لا يحتاج الى فكر في استخراجه وتأمل فهمه"(٢)، وهو يريد بذلك البعد عن التعقيد الذي يؤدي إلى اللبس والغموض. ويفرق عبد القاهر الجرجاني بين مستوى الوضوح الأدبي، وبين الوضوح العادي الذي يكون على ألسنة العامة فيقول:" وإنما أرادوا بقولهم:"ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك أي "أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه، وصيانته من كل ما أخل بالدلالة، وعاق من دون الإبانة، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلاً مثل ما يتراجعه الصبيان، ويتكلم به العامة في السوق"(٣). ووضوح المعاني والأفكار وبعدها عن السطحية لا يدل على سذاجتها وسطحيتها لأنه "لا تضارب بين وضوح المعنى وعمقه وغناه واتساع مجال التأمل فيه، ولا تناقض بأن تجري العبارة على الأسلوب الصحيح البليغ، ثم تكون في الوقت نفسه محكمة النسيج متينة التبيان"(٤).

ووضوح الأفكار والمعاني في الشعر خاصة؛ ينبغي أن يرتفع عن المباشرة النثرية في تناول الأفكار وعرضها، وانكشاف المراد منها منذ الوهلة الأولى كما تفهم أحاديث الناس ومخاطباتهم، وذلك لأن من المركوز في الطبع أن:"الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى"(٥).

هذا بخلاف الشعر المتدثر بالغموض والتعتيم والضبابية فتبدو الأفكار تائهة والمعاني ملتوية، فيخرج هذا العمل الأدبي من دائرة الشعر الجيد إلى الشعر الرديء المتهالك.

---

(١) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩/١.

(٢) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م ص٢٢٠.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مراجعة وتصحيح:السيد محمد رشيد رضا، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ط٦، ١٣٩٧هـ ص ١١٤.

(٤) طه أبو كريشة، الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي، دار التوفيقية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ ص ٢١٥.

(٥) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ١٣٩.

وقد يكون من الغموض في القصيدة الإكثار من المحسنات البديعية، والغلو في استعمالها يقول الجرجاني:"وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا خير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده، كما تثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها"(١).

والوضوح الشعري وحده غير كاف ما لم يعتضد بالعناصر الأدبية الأخرى، والوضوح الشعري كان مقياساً نقدياً وبلاغياً عند معظم النقاد، لكنه وحده لا يكفي ما لم يقترن بجمال الصياغة وحلاوتها من خلال ألفاظ عذبة وجزلة في ذات الوقت، وتراكيب ممتعة حسنة التأليف، أما إذا خلا من ذلك هبط عند النقاد فنياً إلى درجة البرودة والرداءة(٢).

ولعل المتأمل في شعر أسامة بن منقذ وخاصة في فخره يلمس الوضوح في معانية وأفكاره، ومرد ذلك إلى أن الشاعر أراد أن يوصل لنا فخره واضح المعاني والأفكار، فهو يريد الإبانة عن نفسه وقومه. فما الذي يحوجه إلى المعاني الملتوية والأفكار الغامضة؟! فحينما يتحدث ليذكر لنا فخره بفروسيته الحربية يبدأ بذكر صولاته وجولاته في المعارك، وإقدامه وشجاعته وحبه للجهاد ضد الإفرنج، ونصرته للمسلمين في أغلب الأمصار التي ارتحل إليها، فمعانيه وأفكاره تبدو واضحة المعالم. فمن ذلك قوله(٣):

وكنتُ إن ثوّب داعي الوغى لبيته بالطعن والضرب
أنازل الأقرانَ يرديهم من قبل ضربي هامهم رعبي

وأنظر إلى قول أسامة حينما يتحدث عن ماضيه المشرق، فقد كان مشعل الحروب وموقدها ولم يكن له هم سوى منازلة الأبطال أمثاله، وقد كانوا يخشونه ويخافونه لأنه قد يتحول إلى وحش

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٥.

(٢) عبد الرحمن محمد القعود، الوضوح والغموض في الشعر العربي القديم، ط ١ ١٤١٠هـ ١٩٩٠م مطابع الفرزدق الرياض، ص٩٣.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٥٩

ضار ثم تحولت حاله وأصبح كالفتاة الناعمة التي لا تبرح بيتها، كل تلك المعاني نجدها في أبياته التالية[١]:

أُنظُر إلى صَرفِ دهري كيف عَوَّدني ... بعد المشيبِ سوى عاداتيَ الأولِ
قد كنتُ مِسْعرَ حرب كلما خمدتْ ... أضرمتُها باقتداح البِيض في القُللِ
همي منازلةُ الأقرانِ أحسبَهُم ... فرائسي فهُمُ مني على وَجَل
فصرتُ كالغادةِ المِكسالِ مضجعُها ... على الحشايا وراءَ السَّجفِ والكِللِ

وقد رافقت أدوات الحرب شاعرنا وكانت حصنه التي يستعين بها وقت الشدائد، مما جعله يذكرها في شعره ويفتخر بها. فمن ذكره قوله[٢]:

قد كان كفي مألفاً لمهند ... تُعَرى القلوب له وتُفرى الهامُ
ولأسمرٍ لدنِ الكُعوبِ وجارُه ... حيث استمرَّ الفكرُ والأوهامُ

ومن قوله في تلك المعاني[٣]:

والبِيضُ دون خدورِ البَيض مُصلتَةٌ ... حكَّتْ جداولَ ماءٍ غيرِ مُطَّرِدِ
والبِيض والسُّمرُ لا تَروى بغيرِ دمٍ ... من كلّ جائشةِ الأرجاءِ بالزَّبدِ

وقد جاء هذا الوضوح في معاني شاعرنا وأفكاره في حديثه عن فخره بخصاله الحميدة حيث ذكر في شعره تلك الخصال والقيم التي ينبغي على الفارس أن يتصف بها وهي قيم رائعة تضمنت الإقدام والصبر والكرم والوفاء والتضحية. وها هو ذا يفتخر بتلك الأخلاق فمن ذلك حديثه عن شجاعته الفذة وعزيمته الصادقة[٤]:

سلِ الموتَ عني فهو يشهدُ أنني ... على خوضِهِ في الحربِ ثبتُ العزائِمِ

---

(١) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٩.

ويؤكد هذه البطولة بهذه المعاني الرائعة الواضحة، فيطلب منا أن نسأل الشجعان أمثاله عن قوته وبسالته، ثم يذكر لنا الإجابة على ألسنة أولئك الفرسان الذين أجمعوا على قوته وبطولته ورباطة جأشه يقول[١]:

سلْ بي كُمَاةَ الوغى في كل معركةٍ يضيقُ بالنفس فيها صدرُ ذي الباس
يُنَبِّئُوكَ بأني في مضايقِها ثبتٌ إذا الخوفُ هزَّ الشاهقَ الراسي
أخوضُها كشهابِ القذفِ يصحبني عَضْبٌ كبرق سرى أو ضوءِ مقباس

ومن أخلاقه التي افتخر بها وعبر عنها بمعان واضحة:سعيه لاكتساب مكارم حتى يظل مخلداً بعد الممات ومن أبرزها شجاعته. فيقول[٢]:

سأُنفقُ وَفري في اكتسابِ مكارم أظَلُّ بها بعد المماتِ مخلداً
وأسعى إلى الهيجاءِ لا أرهبُ الردى ولا أتَخشَّى عاملاً ومهنداً
فإن نلتُ ما أرجو فللجودِ ثم لي وإن مِتُ خَلَّفتُ الثناءَ المؤبَّدا

وتتعالى نبرة الفخر لدى الشاعر بمعنى جميل رائع حينما يصور لنا صبره على طلب العلا مهما أصابه من كرب وهم وضيق؛ لأن لديه قلبًا صابرًا وعزيمة صامدة صمود الجبال[٣]:

متى رآني الشَّامتون ضَرِعاً لنكبةٍ تَعرُقُني عَرق المِدَى
هم يعلمون أنني أصلَبُ من صُم الصفا فما عدا مما بدا
هل بزني الخطبُ سِوى وفْرِي الذي كان مُباحاً للنَّوال وللنَّدى

وهاهو الشاعر يفتخر بإتلافه المال وببذله له فالمجد الباقي والذكر الدائم بخلق الكرم، لا ببقاء ذلك المال وقد أبان عن فكرته بقوله[٤]:

إنْ جَمعوا المالَ فأوعَوْا أتلفتْ يدي طريفَ ما حوتْ والتَّلِدَا
هم يرون المالَ ذخراً باقياً وإنما ذخر الفتى أن يحمدا

وحينما ننتقل إلى فخر الشاعر بقبيلته ونسبه نلمس معاني وأفكارًا واضحة؛ فقبيلته تحتل مكانة عالية وقد بلغت ذرى المجد في الحسب والسؤدد ولها تاريخ مجيد حافل بالعطاء والكرم

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦١.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦١.

والشجاعة وحماية الجار ورعاية الفقراء والمساكين والمعوزين، وهو يرى أنهم فرسان حرب لا يهابون الموت ويقبلون على خوض المعارك وهم يجيرون الخائف ويكرمون الضيف. يقول في ذلك[١]:

النازلِينَ بكلّ ثغرٍ خائفٍ والآمنينَ مَعَرَّةَ الجُرَّامِ
وإذا أتاهمْ مُستجيرٌ خائفٌ آوى إلى حرمٍ من الأحرامِ
وإذا أناخَ السائلونَ بجوِّهم عادوا ثِقالَ الظَّهرِ بالإنعَامِ
يتهللون طلاقةً وتَخافُهُم لِسُطاهُمُ الآسادُ في الآجامِ

ويحدثنا عن قبيلته التي كانت معه في الشدائد ومعه في وقت الرخاء ،وقد أثبت لهم المكانة العالية وافتخر بذلك على الرغم مما حصل بينه وبينهم من خلاف مما اضطره إلى الخروج من موطنه؛ ومع ذلك كله فهم عنده بمثابة السيوف التي يهاجم بها الفارس أعداءه ولا يستغني عنها[٢]:

بنو أبي وبنُو عمي دَمي دمُهم وإن أَرَوْني مناواةً وشَنآناً
كانوا جناحي فحصَّتُه الخطوبُ وإخو واني فلم تُبِق لي الأيامُ إخواناً
كانوا سيوفي إذا نازلتُ حادثةً وجُنَّتي حين ألقَى الخطبَ عُرياناً

فالشاعر يحب قومه برغم ما حصل منهم ويفخر بهم ويتأسف على زوالهم .

٢- الأفكار والمعاني بين العمق والسطحية:

العمق والسطحية من المقاييس الفنية التي تقاس بها المعاني والأفكار، وإذا كانت دلالة العمق من الناحية النقدية، ليست محددة في إطار معين، فإن المعنى اللغوي يستطيع إعطاء تصور عام لما يمكن أن يطلق عليه ذلك الوصف، ويسهم في رسم معالم الطريق، فمن الناحية اللغوية يقال:فج عميق: أي بعيد أو طويل، والعمق:ما بعد من أطراف المفازة[٣]. ويقصد بالعمق:"أن يكون المعنى من المعاني التي تحتاج إلى تأمل وتدبر وغوص في صميم الحياة والأحياء"[٤]. وقد

(١) أسامة بن منقذ، العصا، ص ٤٥٤.

(٢) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص٣٥٩

(٣) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الفكر بيروت، مادة:(ع م ق) .

(٤) محمد شعيب، دراسات في النقد الأدبي الحديث، ص ١١٦.

ذكر الآمدي أن العرب تفضل عدم الإغراق في الوصف واستقصاء المعاني حيث يقول:"والمطبوعون، وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني، والإغراق في الوصف، وإنما يكون الفضل عندهم من جهة الإلمام بالمعاني، وأخذ العفوي منها، كما كانت الأوائل تفعل مع جودة السبك وقرب المأتى"[١].

ويمكن توجيه قول الآمدي على معنى عدم مجاوزة الحد المعقول، والإغراق في المعاني لدرجة تجعلها متكلفة ممقوتة، فهو يطلب من الشاعر أن يكون على سجيته عند عرض معانيه، وربما يكون في ذلك إيجاز وبعد عن الإطناب في غير مقام يدعو إليه. ولا شك في أن الإيجاز مظهر من مظاهر عمق المعنى إذ يعطي معاني كثيرة بألفاظ قليلة محددة. وعن هذا المقياس النقدي يقول أحمد بدوي:((ولم يتحدث العرب عن هذا المقياس كثيراً وإن كنا نستطيع أن ندرك تقديرهم لهذا المقياس، عندما رأوا بعض الشعراء يكتفي بنظم المعاني المألوفة بينما يرون البعض الآخر يغوص على المعنى، ويُعنى به أكثر من عنايته بالألفاظ)) [٢]. أما مفهوم السطحية في المعاني والأفكار فالمراد به قرب المعنى من الذهن، وسهولة فهمه، لأنه يتكشف للقارئ من أول وهلة فهو لا يحوج إلى تكرار قراءة النص الشعري، طمعاً في الحصول على جوانب أخرى غير تلك التي أفادها القارئ من قراءته الأولى.

وإذا نظرنا في أفكار الشاعر ومعانيه فإننا لا نجده ينتمي إلى أصحاب المذاهب الفلسفية أو إلى الذين يقحمون المبادئ الفكرية في شعرهم؛ ومع ذلك نجد معانيه وأفكاره تتفاوت بين العمق والسطحية ،والغالب عليها اتصافها بالعمق، وقد جاءت معظم نصوصه الشعرية تحمل هذه السمة، ومن أمثلة ما أورده أسامة بن منقذ في فخره بقوته وبطولاته الحربية وتفرده، وتجربته في منازلة الأبطال واقتياده لهم في صورة معبرة ،يقول عن نفسه[٣]:

لو سرتَ في عرضِ البسيطةِ طالباً ... رَجُلاً خبيراً بالحروب مجرباً

عانى الحروبَ مُجاهِراً ومخاتلاً ... طفلا إلى أن عاد هِمّاً أشيباً

قتلَ الأُسودَ ونازلَ الأبطالَ في الـ ... ـهيجاءِ واقتادَ الكميَّ المحربا

لم تلقَ مثلي من يكادُ يريه حسـ ... ـنُ الرأي ما قد كان عنه مُغيبا

---

(١) الآمدي، الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد:أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ٤٩٦/١.

(٢) أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، دار نهضة مصر، القاهرة ط ٣ ١٩٦٤م، ص٤٥١.

(٣)أسامة بن منقذ، العصا، ص٢٦٠.

ولعل من مظاهر العمق أن يختار الشاعر جانباً محدداً من الموضوع، فيمضي في مساربه، ومشاعبه بخطىً وئيدة، فإذا بذلك الجانب يغدو أكثر تأثيراً في نفس السامع، والمتأمل في نصوص الشاعر يجد أن عمق معانيه وأفكاره أتى من خلال طرقه لمعنى البطولة والشجاعة وكريم النسب والمجد والافتخار بكل ذلك، ومن حديثه ما عبر به عن حبه لمقارعة الشجعان أمثاله، وأن خيله ألفتْ ذلك وتعودت عليه[١]:

ألفتْ مُقَارَعَة الكُماةِ جيادُه وسُرى الهواجِرِ لا يَني ذَمَلانُهُ
يومانِ أجمعُ دهرِهِ إما سُرًى أو يومُ حربٍ تَلتظي نِيرانُهُ

ولا يزال الشاعر يؤكد بطولته وشجاعته وصموده رغم شماتة الأعداء لحاله وما آل إليه، ولكنه مع ذلك يرى نفسه ذلك السيف الذي فلل حده من منازلة الأعداء، وهو رد قوي ورائع[٢]:

تَظاهرَ قومٌ بالشماتِ جهالةً وكم إحْنَةٍ في الصدرِ أبرزها الجهلُ
وهل أنا إلا السيفُ فَلَّلَ حدَّه قراعُ الأعادي ثم أرهفه الصقل

ومن أمثلة المعاني العميقة عند الشاعر :حواره مع قومه الذين نصحوه بالحفاظ على ماله وادخاره له ، فرد عليهم مفتخراً بذلك الأمر، لأنه يؤمن بأنَّ الله سيعوضه على ما أنفق وأعطى ما دام ذلك في سبيله، يقول[٣]:

يقولون لي: أفنيتَ كل ذخيرةٍ وأنفقتَ مالاً لا تجودُ به النفسُ
فقلتُ: نعم فرقْتُ ما جمعت يَدي وأرجو غداً يأتي بما أذهبَ الأمسُ

ومن المعاني العميقة ذلك الحوار الرائع الذي نفث به أسامة وهو يحدث امرأة قد تعلق قلبه بها، وقد رأته حسيراً كسيراً فأجابها بأبيات تحمل في طياتها معاني الصبر والوفاء والبطولة والبسالة فيقول[٤]:

إليكِ فما تثني شُؤونكِ شاني ولا تملك العِينُ الحسانُ عناني
ولا تجزعي من بغتةَ البينِ واصبري لعل التنائي معقبٌ لتداني
ولا تحملي همَّ اغترابي فلم أزل غريبَ وفاءٍ في الورى وبيان

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٠٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢٩١.
(٣) المصدر السابق، ص٢٨٧.
(٤) المصدر السابق، ص٢٧٨.

وفياً إذا ما خانَ جفنٌ لناظرٍ ولم ترعَ كفٌ صُحبةً لِبَنان
فللأسدِ غِيلٌ حيثُ حلَّت وإنما يهابُ التنائي قلبُ كلِّ جبان
ولا تسأليني عن زماني فإنني أُنزِّه عن شكوى الخطوبِ لساني
ولكن سلي عني الزمانَ فإنه يُحدِّث عن صبري على الحدثان

وفي فخر أسامة بقبيلته نجد معان عميقة ورائعة، فهو يرى أنهم وصلوا إلى مكانة عالية، ولو عُدّت مناقبهم لكادت الشمس تنكسف من كثرتها، ويرى كذلك أنه مهما أثنى عليهم وذكر تلك المناقب فلن يوفيهم حقهم ،لأنهم فوق الثناء وفوق الوصف. يقول في ذلك[١]:

خُلقٌ نماهُ أغرُّ أروعُ ميـ مونُ النقيبةِ ماجدٌ أنِفُ
من معشرٍ طابتْ مغارسُهم فسمالهم فوق السُّها شرف
قومٌ إذا عُدَّت مناقبُهم كادتْ لهن الشمسُ تنكسف
لو حاولوا الأفلاكَ ما قصُرتْ عنها أُكفُّهمُ ولا ضعفوا
لا عيب فيهم غير أنهُمُ في جُودِهم لُعفاتِهم سرف
أثني بعلمي فيهمُ وهمُ فوقَ الثناء وفوقَ ما أصف

ومن أمثلة المعاني السطحية عند الشاعر حينما ذكر أنه سيموت ، لا محالة غير أنه يتمنى أن يموت في ساحة المعركة ، يقول في ذلك[٢]:

يا حسرتاً إني غداً ميْتٌ على فراشي مِيتةَ الخامل
هلا أتاني الموتُ يومَ الوغى بين القَنا والأَسَلِ الناهل

فالقارئ لا يحتاج إعمال فكر، وإمعان نظر حتىَّ يستطيع أن يفهم المعنى، ومن أمثلة المعاني السطحية كذلك فخره بفروسيته وشجاعته فقد ذكر أن مكانته في السِّلم محددة بما يظهره في الحرب من شجاعة وإقدام يقول في ذلك[٣]:

إن يَحسُدوا في السِّلْم مَنـ زِلتي من العزِّ المُنيفِ
فيما أُهينُ النفسَ في يومِ الوغى بين الصفوف

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٥٧.
(٢) أسامة بن منقذ، العصا، ص٤٥١.
(٣) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص٢٦٢.

ولطالما أقدمتُ إقـ ـدامَ الحُتوفِ على الحُتوف
بعزيمةٍ أمْضَى على حدِّ السيوفِ من السيوف

ويبدو من النص السابق جنوحه إلى النثر منه إلى الشعر غير أنه موزون ومقفى، فالقارئ له لا يجد صعوبة في إدراك معناه. ولعل من المعاني السطحية عند أسامة حينما يحدثنا عن سيرة بني منقذ وعن سياستهم العادلة التي عن أبائهم وأجدادهم ، قوله[١]:

إن جُرْتَ عن نهجِ الكرامِ فمرشدٌ لك مرشدٌ بمكارم الأخلاق
فاعمد لمجد الدِّين تلقَ المجد ما لاقيتَه، أكرمْ به من لاق
فإذا وصلتَ إلى أغرَّ محجبٍ مخلوقةٍ كفَّاهُ للإنفاق
فارْبَعْ بربعٍ لا يزالُ نزيلَهُ حسنُ الثناءِ، وخشيةُ الخلاّق

والقارئ لا يجهد فكره ليخرج بمعان جديدة أخرى ، ولا يحتاج إلى إمعان نظر حتى يدرك معناه.

٣-**الأفكار والمعاني بين الإبداع والاتباع**: الإبداع في لغة العرب الإنشاء والبدء، والبديع، والبدع الشيء الذي يكون أولاً[٢]. وقد فرّق ابن رشيق بين مصطلح (الإبداع) ومصطلح (الاختراع) بقوله:فالاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له: بديع، وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق[٣].

وفي دراسة " الإبداع والاتباع" سنجد أنفسنا أمام قضية (السرقات الأدبية) وهي إحدى القضايا الكبرى في النقد العربي القديم. وفي هذا المجال يحرص الناقد على معرفة ما إذا كان الشاعر قد نظر إلى إبداع شاعر سابق عليه، فسار وراءه حذو القذة بالقذة أو انتحل لنفسه ما

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص١٨٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ب و ع).

(٣)ابن رشيق، العمدة ٢٦٥/١.

أبدع فيه غيره، ولن أدخل في تفاصيل هذه القضية، وسأكتفي برأي الجرجاني الذي أورده الآمدي حيث يرى الجرجاني أن المعاني على ثلاثة أضرب[١]:

"فالمشترك:لا يجوز ادعاء السرق فيه، والمبتذل:ليس أحد أولى به من الآخر، والمختص:الذي حازه المبتدي فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه، فصار المعتدي مختلساً سارقاً والمشارك له محتذياً تابعاً "، ولذا سأقتصر في دراسة الإبداع على ما أجده في فخر أسامة وفروسيته ويتمثل ذلك في أبياته الشعرية وتألقاته الرائعة التي حوت معان جميلة، أما تلمس مواطن الأخذ والتعجيل برمي الشاعر بالسرقة فليس ذلك مجال الدارسة، ولعل من أمثلة الأبيات الإبداعية فيما أظن قوله[٢]:

قد كنتُ مُسعرَ حربٍ كلما خمدتْ أضرمتُها باقتداحِ البيضِ في القُلل
همي منازلةُ الأقرانِ أحسبَهُم فرائسي فهُمُ مني على وَجل

فهو مشعل الحرب من خلال سيوفه التي تقدح كلما اصطكت برؤوس الأعداء، فأقرانه كالفرائس يصطادهم كما يصيد الصائد فرائسه.

ومن الأبيات الرائعة قوله[٣]:

تظاهرَ قومٌ بالشَّماتِ جَهَالةً وكم إحنَةٍ في الصدرِ أَبرزها الجهل
وهل أنا إلا السيفُ فَلَّل حدَّه قراعُ الأعادي ثم أرهفَه الصقل

فحينما تظاهر أعداؤه بالشمات جهلاً رد عليهم مستخدماً أسلوب القصر، وكأنه يقول:إن ازدراءكم لحالي ما هو إلا بسبب الإحن التي في صدوركم، فما أنا إلا سيف تفلل حده من كثرة القتال.

ومن الأبيات الرائدة الرائعة ذات المعاني الإبداعية قوله[٤]:

وصفَ الصبرَ لي جهولٌ بأمري فارغُ البالِ من هُمومي وفكري
مستريحٌ ما قلبُه مثل قلبي لا، ولا دَهرهُ ظَلومٌ كدهري
مالَه بالهمومِ عهدٌ ولا اضْـ ـطُرَّ إلى الصبر باقتسارٍ وقهر
وأنا الدَّهرُ في خطوبِ زمانٍ أشربُ الصبر فيه من حُسن صبري

---

(١) علي الجرجاني، الوساطة، تحقيق وشرح: محمد أبو المفضل وعلي محمد البجاوي ، ١٨٣.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص٣٠٥.

(٣)المصدر السابق، ص ٢٩١

(٤) المصدر السابق، ص١٢٧.

صارَ لي عادةً فلو ضاقَ رحبُ الـ أرض عني ما ضاقَ بالصبرِ صدري

فقد عبَّر عن صبره الذي يخفى على الكثيرين من الذين لم يخوضوا تجربته ولم يشربوا من الكأس الذي شرب منه وفوق ذلك أصبح الصبر عادة له فهو يتمتع بقلب صبور يفوق رحب الأرض في ثباته وصموده. ومن الأبيات الجميلة ما نقرأه حينما افتخر بقبيلته إذ يرى أنه لو عدت مناقبهم لكادت الشمس تنكسف لكثرتها، يقول في ذلك:(١)

قومٌ إذا عُدَّت مناقبُهم كادت لهنَّ الشمسُ تنكسف

لو حاولوا الأفلاكَ ما قَصُرت عنها أكفُّهمُ ولا ضعفوا

أما ظاهرة الاتباع فيمكن أن يقال:"إن صلة الشاعر بتراثه تعد ضربة لازب، إذ هي من الأمور البديهية، وعلى ذلك فإن قضية التفرد الشعري لشاعر متأخر عن شاعر أو شعراء متقدمين تعد صعبة للغاية، وقد عالج بعض الشعراء هذا الأمر حيث عبروا عن ذلك شعرياً فهي إما نفثة مصدور أو تأوه من اكتوى بنار السير، مع محاولة التفرد"(٢) فهاهو ذا عنتره العبسي يقول:(٣)

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

واصطلى بها كعب بن زهير أيضاً حيث قال: (٤)

ما أرانا نقولُ إلا رجيعاً ومعاداً من قولِنا مكرورُ

ويروى:

ما أرانا نقولُ إلا معاراً أو معاداً من لفظِنا مكرورا

وقد بلغت المحنة أوجها في العصر العباسي عند الشعراء المحدثين ،ويبين تلك المحنة الجرجاني بقوله:"ومتى أجهد أحدنا نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً، ونظم بيتاً يحسبه فرداً مخترعاً ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجد له مثالاً يغض من حسنه"(٥) ويؤكد ابن رشيق ذلك بقوله: " إن مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٥٧.

(٢) عبدالله إبراهيم الزهراني، دراسة في التأثر الشعري، منشورات نادي الباحة، الأدبي، ط١٤٢١،١هـ ص١٠.

(٣) عنترة بن شداد، الديوان، تحقيق ودراسة:محمد سعيد مولوي، طبعة المكتب الإسلامي الثانية، ١٤٣٠هـ ص٢١١.

(٤) أبو سعيد السكري، شرح:مفيد قميحة، شرح ديوان كعب بن زهير، دار الكتب المصرية ١٩٥٠. ص٦٦

(٥) علي عبدالعزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح:محمد أبو المفضل وعلي البجاوي، دار القلم، بيروت، ص٢١٤.

ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر وزينه"[١] يقول أحد الباحثين :"من هنا تكون الظاهرة بالنسبة لأسامة بن منقذ أشد صعوبةً فهو من جماع الشعر، ومن المطلعين عليه بزخم وصادف أن عشق من خلاله عباقرة الفن الشعري العربي، أو هكذا وصلوا إليه في عصر تغيرت ظروف الدولة الإسلامية سياسياً وعسكرياً وثقافياً إذ كيف تكون صلته بذلك التراث الشعري، مع تأخر زمانه وتقلب أحواله"[٢] والحق أن ظاهرة الاتباع كانت سمة واضحة لشعراء تلك الحقبة أو كما يقول الدكتور مسعد العطوي:"وكان رواد الفن المتزامن مع الحروب الصليبية قد جاءوا في مرحلة اكتمال الحضارة الإسلامية في جوانب عدة سيما الألوان الفنية، فقد نشأوا على إبداع كبار الشعراء العرب جاهليين وأمويين وعباسيين... فتتلمذوا عليهم واختزنوا إبداعهم في المكونات الذهنية التي تتلاحق مع تجاربهم أثناء النتاج الإبداعي فيكون التلاقي والتواصل والاقتداء"[٣]. وسأقتصر على نموذجين لأسامة تداخلت أبياته مع أبيات غيره، من ذلك قول أسامة:[٤]

سلْ بي كُماة الوغى في كلِّ معركةٍ ... يَضيقُ بالنفس فيها صدرُ ذي الباس

ينبّئُوك بأني في مضايقها ... ثبتٌ إذا الخوفُ هزَّ الشاهقَ الراسي

أخوضُها كشهابِ القذفِ يصحبني ... عَضبٌ كبرقٍ سرى أو ضوءِ مِقباس

إذا ضربتُ به قِرناً أُنازلهُ ... أوحاهُ عن عائدٍ يغشاهُ أو آسي

فهذا المعنى يلتقي مع أبيات لعنترة، ولعل الروح الحماسية والشجاعة المشهورة لأسامة جعلته يلتقي مع عنتره وخاصة في معلقته، يقول عنترة: [٥]

سبقت يداي له بعاجل طعنة ... ورشاش نافذه كلون العندم

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

---

(١) ابن رشيق، العمدة، ٥١/١.

(٢) عبد الله الزهراني، دراسة في التأثر الشعري، ص١٤.

(٣) مسعد العطوي ، الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية، مكتبة التوبة الأولى ، ١٤١٥هـ، ص٥٦٨.

(٤) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص٢٦١.

(٥) أمين الخولي ، ديوان عنترة ، مكتبة الآداب ، بيروت ، ١٨٩٣م ، ص ٨٢.

ومن أمثلة التضمين عند الشاعر ، تضمينه لأبيات المتنبي في عتاب سيف الدولة بل معارضته له في الألفاظ والمعاني ، ويرجع ذلك إلى إعجاب أسامة بالشاعر المتنبي كما أن مواطن التلاقي بينهما تبدو واضحة في هذه المعارضة:فممدوح أسامة يلتقي مع ممدوح المتنبي في الإمارة والشجاعة، وأن كليهما –أي أسامة والمتنبي – واجها حسدا من الحساد أدى إلى إبعادهما، وكلا الشاعرين كان يمني النفس بمكانة عالية عند الممدوح. إن المتأمل في ذلك التضمين ليرى أن أسامة قد أتى على أغلب معاني المتنبي وقوافيه، إذا أن مجموع قصيدة المتنبي سبعة وثلاثون بيتاً، ضمن ثمانية أبيات من معانيها، وأخذ تسع عشرة قافية، ليصبح مجموع القوافي ثلاثاً وعشرين قافية، بينما قصيدته سبعة وأربعون بيتاً، ليصبح الباقي لأسامة أربع عشرة قافية. وكان بمقدور أسامة أن يعبّر عن الحدث دون هذا التضمين المبالغ فيه، فقد سلخ ميمية المتنبي سلخاً وأتى على معظمها، لاسيما وأن أسامة شاعر له مكانته العالية والقدح المعلّى في الشعر. ومن أمثلة ذلك التضمين قوله أسامة: (١)

وأنت أعدل من يُشكى إليه وَليْ شَكِيَّةٌ أنت فيها الخصم والحكم

مأخوذة من قول المتنبي: (٢)

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقول أسامة: (٣)

وما ظننتك تنسى حق معرفتي إن المعارف في أهل النهى ذمم

مضمنا قول المتنبي: (٤)

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النهى ذمم

وقول أسامة: (٥)

لكن ثقاتك مازالوا بغشهِم حتى استوت عندك الأنوار والظلم

وهذا مضمن من قول المتنبي:(٦)

وما انتفاع أخي الدنيا بناظرة إذا استوتْ عنده الأنوار والظلم

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ١٩٦

(٢) المتنبي، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ ، ص ٣٣٢.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ١٩٦

(٤) المتنبي، الديوان، ص ٣٣٣

(٥) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ١٩٦

(٦) المتنبي، الديوان، ص ٣٣٢

الفصل الثالث: العاطفة

تعد العاطفة من أهم عناصر العمل الأدبي، وأهميتها تأتي من جهة كونها الروح الذي تُبثُ في المادة فتحلُّ بها كل مقومات الحياة وما لها من أثر عظيم في إدراك الجمال وتذوقه. فالعاطفة هي:"الحالة الوجدانية التي تتميز بالاستقرار والدوام وبعدم العنف، والثورة اللذين يميزانها عن الانفعال، ويترتب على وجود هذه الحال الميل إلى الشيء أو الانصراف عنه"[١] أما العاطفة الأدبية فيعرفها أحمد الشايب بأنها:"تلك القوة التي يثيرها الأدب فينا نحن القراء" [٢]، ويؤكد أحمد بدوي عناية النقاد العرب بهذا العنصر الرئيس من عناصر الأدب بقوله:"لقد أدرك العرب معنى العاطفة وإن لم يضعوا لمعناها هذا الاسم الاصطلاحي، وأدركوا أن فقدان هذه العاطفة في الشعر يترتب عليه أن يصير الشعر جافاً، لأنه في تلك الحالة يخاطب العقل وحده من غير أن يثير الشعور، ويبعث الوجدان، فيكون مثلهُ حينئذ مثل المسائل العلمية والقواعد النظرية" [٣]، وقد ذهب ابن رشيق على تسميتها (بقواعد الشعر) وقصرها على أنواع أربعة هي:(الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب) [٤] ،ومضى موضحاً ارتباط تلك العواطف بالأغراض بالأغراض الشعرية فقال:"مع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق، ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء، والتوعد والعتاب الموجع"[٥] وأحسب أن ابن رشيق قد بنى مقالته على ما ورد من قوله ((أشعر الناس:امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب)) [٦] وعنصر العاطفة أبقى في النص من العقل، ذلك أن العقل ينتج علماً بينما "العلم كل يوم في تَغَيُّر وتبدل، بينما العاطفة عنصر ثابت قلّما يحدث فيه أدنى تغيير أو تبدل، ألا ترى عاطفة الحزن على ميت مثلاً، هي منذ أن فقد الناس أحبتهم بالموت مهما اختلفت وسائل تعبير

---

(١) أسعد زورق، موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٧٧م، ص٢٠٤.

(٢) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ط ٨، ١٩٧٣م، ص١٨١.

(٣)أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص٥٠٨.

(٤) ابن رشيق، العمدة، ١/١٢٠.

(٥)المصدر السابق، ١/١٢٠.

(٦)المصدر السابق، ١/٩٥.

الناس عن هذا الحزن، وكذلك عاطفة الفرح، والرضا والإعجاب"[١]. ويؤكد أحد الباحثين أهمية العاطفة بقوله:"والحقيقة أن العاطفة هي أقوى عنصر يهب الخلود للقطعة الأدبية، ويلقيها في روع الناس إلقاءً، لا يعفو بكر الجديدين" [٢]. ولعل في النص السابق مبالغة في أهمية العاطفة، إذ أن خلود النص الأدبي يعتمد على جملة مقومات ومن بينها الجانب العاطفي في النص كما أن العقل له دور بارز في الشعر ولذلك عرف شعر الحكمة عند بعض الشعراء . وفي مجال العاطفة يطرح أحمد الشايب تساؤلاً مهماً فيقول:"ولكن أية عاطفة نعني بدراستها، وبيان مقاييسها النقدية؟. أعاطفة القارئ، أم عاطفة الكاتب والشاعر والخطيب مثلاً؟ أم عاطفة هؤلاء الأشخاص القصصيين الذين يبتكرهم الأديب؟"[٣]. ثم ينتهي إلى شبه تلازم بين تلك النواحي الثلاث فمن المشكوك فيه أن يستطيع الأديب عرض العواطف القوية أو بعثها في نفوس قرائه دون أن يحسها في نفسه قوية، ثم يتنفس عنها بهذا الأدب القوي التأثير، والشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفد ماء شؤونه، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلبه، والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء، هو انبعاث الشعر والنثر عن نفس منفعلة صادقة الشعور"[٤]. وفيما يلي سأقف على العاطفة عند الشاعر وفق الموضوعين التاليين وهما:صدق العاطفة وكذبها، قوة العاطفة وضعفها.

---

(١) علي عبدالحليم محمود، النصوص الأدبية، مكتبات عكاظ، الرياض، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م، ص٧٧.

(٢) كمال أبو مصلح، الكامل في النقد الأدبي، المكتبة الحديثة، بيروت، ط٣، ١٩٦٧م.

(٣) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص١٨٠.

(٤)المصدر السابق، ص١٨١.

"يراد بصدق العاطفة:أن تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع"[١]. ولذا يمثل عنصر الدافع إلى القول والسلوك، أساس الحكم على العاطفة بالصدق أو الكذب فإذا كان حقيقياً غير زائف ولا مصطنع فإن العاطفة تكون صادقة، وإن لم يكن كذلك، فإنها ستكون مزيفة كاذبة، ومن هنا فرقت العرب بين بكاء الثكلى، وبكاء النائحة فقالت في أمثالها:"ليست النائحة كالثكلى"[٢] فإذا كان الدافع حقيقياً لدى الثكلى، فهو متكلف ومزيف لدى النائحة التي تتظاهر بالبكاء، والحزن للحصول على الأجرة المقررة، وهي تظهر بكاء أشد، وحزناً أعظم، كلما نالت أجراً أكبر.

فالعاطفة الصادقة "تصدر عن نفس عانت تجربة من تجارب الحياة، وأحست بواقعها، وتأثرت بها تأثراً قوياً فاندفعت تجسد ما أحست به من أحاسيس ومشاعر حيال تلك التجربة في عمل أدبي"[٣].

وهي التي إذا لامست وجدان المتلقي أحس أنها أثارته، وحركت مشاعره، وهزت نفسه. وقد تمتد استجابته لها إلى درجة تصوره أن الأديب إنما يترجم مشاعره وأحاسيسه هو، وكأنه استشف ما في نفسه فسجله وتصوره في عمله الأدبي، لأن الأديب إنما يسجل الإحساس الإنساني العام، ويبرز الاستجابة الإنسانية الصادقة، ممثلة في استجابته الخاصة للتجربة التي أحس بمعاناتها"[٤].

وصدق العاطفة لا يقصد به الصدق العلمي أو الأخلاقي إنما الصدق الفني"[٥]، والمراد بالصدق الأخلاقي هو الصدق الواقعي؛ أي "الوقوف عند حدود الأخلاق والمواضعات الاجتماعية السائدة"[٦] أي بمعنى أن تصور الأشياء كما هي ، أما الصدق الفني فهو:"الصدق فهو:"الصدق الذي ينم على أن العمل الأدبي يخبر بشيء يتوافق مع الحياة ومع المحصلات

---

(١) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص١٩٠.

(٢)أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد، مجمع الأمثال، المكتبة التجارية، القاهرة ط٢، ١٣٧٩هـ، ٢/٢٠٠.

(٣) محمد عبد الرحمن شعيب، دراسات في النقد الأدبي الحديث، القاهر، ص ١٣٧-١٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٥) أحمد كمال زكي، النقد الأدبي أصوله واتجاهاته، النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م ص٩٣.

(٦) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، ص ٢١١.

الوجدانية دون أن يكون له أي أثر من شأنه أن يؤدي إلى النفور أو الشذوذ، إن الصدق الفني الذي ينبع من منطق العمل الأدبي، أو من موضوعيته بكل أبعادها وتفصيلاتها"[١]. كما أن صدق الأديب في التعبير عن مشاعره، والعودة في ذلك إلى نفسه ذاتها لا إلى المحفوظ من العبارات التقليدية"[٢].

وقد ظهرت العاطفة الصادقة في فخر أسامة بن منقذ وفروسيته في شعره ، وذلك من خلال أمثلة كثيرة، فمن ذلك حينما عرض للشاعر ألم في رجله منعه من ركوب الخيل، فقال[٣]:

رجلايَ والسبعونَ قد أَوهنتْ ... قُواي عن سعي إلى الحرب
وكنتُ إن ثوَّبَ داعي الوغى ... لبيتهُ بالطعن والضرب
أشقُ بالسيفِ دُجى نقعِها ... شقَّ الدياجي مُرسلُ الشهب
أنازلُ الأقرانَ يُرديهمُ ... من قبلِ ضَربي هَامَهمُ رُعبي
فلم تدعْ مني الليالي سوى ... صبري على اللأواءِ والخَطب
ألقى الرزايا رابطَ الجأشِ في ... أحداثها مُجتمعَ اللُّبِ
ما خانني عزمي، ولا عزني ... صبري، ولا ارتاعَ لها قلبي

بهذه العاطفة الصادقة عبر أسامة عن العارض الذي منعه من الركوب ، وهو سبب حقيقي جعله يتأوه وينفث هذه المشاعر الفياضة نحو حبه للمشاركة في القتال ،وقد ساق تلك العواطف وعبر عنها متحدثاً عن نفسه بصيغة الفعل الماضي مرة والمضارع مرة أخرى، فمن الماضي "أوهنت، كنت، لبيته" ومن المضارع"أشق، أنازع، ألقى، تدع" ،وقد أوحت تلك الأفعال إلينا بصدق عاطفته ورغبته الجامحة في المشاركة والذهاب للقتال غير أن المانع كان فوق طاقته. ومن أمثلة ذلك أيضاً حينما أسر أخوه فأرسل إلى ابن عمه يستنجده لفك أسر أخيه غير أنه لم يحرك ساكناً، فجاءت هذه الأبيات في عاطفة صادقة يقول فيها[٤]:

وأنتَ أكرمُ من تُثنيه عاطفةُ الـ ... قربى ويرجوهُ للجُلَّى ذوو الرَّحم

---

(١) أحمد كمال زكي، النقد الأدبي أصوله واتجاهاته، ص ٩٣.

(٢) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث ص٢١٤.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٥٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٩.

ومن تكن أنتَ مولاهُ وناصرَهُ فكيف تسطو عليه كفٌّ مُهتضم
لا تُحوِجَنِّي إلى مَنِّ الرجال فما حملُ الأيادي وإن أَعسرتُ من شِيمي
ولا تظنَّني أدعو سِواكَ ولا يفوهُ مُجتدياً إلا إليكَ فمي
علامَ أرتشفُ الرَّنْقَ الأُجاجَ وقد روِّيتَ كلَّ صدٍ من بحركِ الشَّبم
أنا ابن عمِّك فاجعلني بفك أخي من أسرهِ لك عبداً ما مشت قدمي
فملكُ مِثليَ لا يَغلو بما بذلَ الـ مبتاعُ فيه ولا يُستامُ بالقِيم

بهذه العاطفة الصادقة الحزينة طفق أسامة يستعطف ابن عمه وهي ليست من عاداته فقد تربى على الإباء والعزة. ولعل من أصعب المواقف على المرء أن تمر به ضائقة ويطلب من أقاربه وذوي رحمه مساعدته ثم يتنكرون له رغم صلة القربى، ويأتيه الفرج من الأباعد.

وقد عبر أسامة عن تلك العاطفة المكلومة الجريحة بأساليب رائعة، مثل أساليب التعجب والحصر والنفي والشرط" يظهر ذلك قوله:"ومن تكن أنت ناصره"، "ولا تظنني أدعو سواك" "لا تحوجني إلى مَنِّ الرجال" وتتجلى العاطفة في قوله "أنا ابن عمك...". وكأنه يقول له:أنسيت صلة الدم والقربى؟! ويبلغ الاستعطاف من أسامة مبلغه حينما يقول له:"اجعلني بفك أخي من أسره لك عبداً" يالها من عاطفة دفاقة لو نزلت على جبل لخشع وتصدع! ومع ذلك لم يحرّك ابن عمه ساكناً. وتظهر عاطفة الشاعر الصادقة في عتابه المر لأمير دمشق معين الدين أُنر، وهي عاطفة عتاب لصديق عاش معه عشر سنين، وقد كان معه في السراء والضراء، وفي الحروب والمعارك، وفي الصيد وليالي الأنس. لكن الشاعر قرر الارتحال لأن له نفساً أبية لا ترضى الظلم. يقول معبراً عن ذلك:[١]

بلّغْ أميري مُعينَ الدّين مَألُكَةً من نازحِ الدار لكن وُدُّه أَممُ
هل في القضية يا من فضلُ دَولته وعدلُ سيرته بين الورى عَلَمُ
تضييعُ واجب حقي بعدما شَهدتْ به النصيحةُ والإخلاصُ والخِدَم
وما ظننتكُ تنسى حقَّ معرفتي إن المعارفَ في أهل النهى ذِمم
ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينكَ من وُدٍّ وإن أجلبَ الأعداءُ يَنصرم
لكن ثقاتُكَ مازالوا بِغشِّهم حتى استوتْ عندكَ الأنوارُ والظُّلم

(١) أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص١٩٦.

واللهِ ما نصحوا، لما استشرتَهم وكلُّهم ذو هوىً في الرأي مُتهَم

وقد استطاع أسامة أن يوصل عاطفته تجاه ذلك الصديق الذي أخلص له، وتظهر عاطفة العتاب في قول أسامة:"لكن ثقاتك مازالوا بغشهم..."

"والله ما نصحوا..." غير أن الشاعر فضَّل الرحيل حتى لا يستفحل الأمر وأن يبقى الود بينهما، ولذا ختم القصيدة بقوله: (١)

فاسلم فما عشتَ لي فالدهرُ طوعُ يدي وكلُّ ما نالني من بؤسهِ نِعَم

ومن المواقف الصعبة التي ظهرت فيها عاطفة الشاعر حينما فقد أقاربه وأهله في الزلزلة العظيمة التي قضت على أهله وداره ومُلك أجداده، ولم تبقِ إلا المآثر المجيدة والإرث الناصع من الأخلاق الرائعة التي تحلى بها آل منقذ، ولذلك وقف الشاعر مع هذا الحدث الجلل يذكر أهله وقومه وديارهكلما حلت مناسبة أو حنَّ للذكرى ومن ذلك قوله: (٢)

إنْ أقفرتْ شَيزرٌ منهمْ فهمْ جَعلوا منيعَ أسوارها بيضاً وخرصاناً

هُمُ حموْها فلو شاهدتَها وهُمُ بها لشاهْدتَ آساداً وخفَّانا

كانوا لمن خافَ ظُلماً أو سُطَا ملكٍ كهفاً وللجاني المطلوبِ جيرانا

عَلْوا بمجدهمُ سيف بن ذي يزنٍ كما علتْ شيزرٌ في العزِّ غُمدانا

كانوا ملاذاً لأيتامٍ وأرملةٍ وبائسٍ فاقدٍ أهلاً وأوطاناً

إن الأنَّات الحرَّى لتظهر جلية في عاطفة أسامة تجاه ملك آبائه وأجداده، ولا أدل على ذلك من تكرار لفظة:((كانوا)) ،وكأني بأسامة يضرب يداً بأخرى ويقول: واليوم لا ترى إلا منازل هاوية، وأجساداً تحت التراب قد أكلها الدود! بعد أن عمروا الديار وعلوا بمجدهم وأخلاقهم.

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص١٩٨.

(٢) المصدر السابق ، ص٣٥٨.

أما قوة العاطفة في النص الأدبي أمر يتجسد في صور مختلفة يحس بها القارئ المتذوق، ويدرك تلك العاطفة الجياشة التي تسري في أوصال القصيدة، وتجعلها مختلفة تماماً عن القصيدة التي تنبع عن عاطفة ضعيفة واهية "فمقياس قوة العاطفة هو ما يشعر به قارئ القصيدة من أثر في نفسه"[١]. يقول الشايب:"لعل قوة العاطفة وروعتها، من أهم المقاييس النقدية، إن لم تكن أهمها جميعاً، ولكن هذا المقياس يذكر في الترتيب الطبيعي بعد سابقه فإذا استوثقنا من صدق العاطفة سألنا القارئ:هل أثار النص الأدبي شعورك؟ وهل بعث فيك شعوراً حياً قوياً؟ وهل أيقظ نفسك وأنعشها؟ وهل وسع نظرك وأحيا قلبك؟.. إذا كان ذلك متوفراً كان النص أدبا قوياً"[٢]

وتتجلى قوة العاطفة في الشعر من خلال جملة أمور منها:

١) البداية القوية للقصيدة، فهي مظهر من المظاهر التي تتضح من خلالها قوة العاطفة، فالشاعر حين يترك المقدمة التقليدية، يحس أن الأمر أهم من أن يضبط عواطفه، أو يؤجل التعبير عنها، ربثما يذكر للسامع نسيباً يثيره، ويشده إليه، وهو ما علل به ابن قتيبة وجود النسيب في بداية القصيدة العربية وذلك:"ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه"[٣]. إذا كان هو الأمر المعتاد، فإن الشاعر في أوقات معينة ومواقف متميزة يشعر أن الأمر مهم جداً، وأن الإفضاء بما يريد التعبير عنه لا يحتمل التأخير، كما لا يرى حاجة إلى تنبيه الأسماع، فهي مصغية إليه منتظرة ما يقول، ولعل من الأمثلة على ذلك ما كان يجري من مكاتبات بين أسامة بن منقذ وبين الملك الصالح، فقد كان شاعرنا يجيبه دون أن يقف على طلل أو يذكر نسيباً، لأن الأمر الذي يريد أن يفضي به شاعرنا جعله يبدأ مباشرة في غرضه مما أدى إلى اتسام العاطفة بالقوة يقول الشاعر:[٤]

---

(١) أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص١٩٣.

(٣)ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٧٥/١.

(٤) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٧٤ – ٢٧٧

لك الفضلُ من دونِ الورى والمكارمُ ... فَمَنْ حَاتمٌ ما نالَ ذا الفخر حاتِم
وصلتَ، فأغنيتَ الأنامَ عن الحيَا ... وصُلْتَ فخافت من سُطاكَ الصّوارِم
تكفَّلتَ للإسلامِ أنكَ مانُعٌ ... حِماه، مُبيحٌ ما حمى الكفرُ هَادم
رميتَ العِدا بالأُسدِ في أَجمِ القَنا ... على الجُرُدِ تَقتادُ الرَّدى وهو راغم
فسيفكُ للخصم المعاندِ خاصِمٌ ... وعدلُك للشكْوى وللَجورِ شاكمُ
خلطتَ السُّطَا بالعدل، حتى تألَّفتْ ... أسودُ الشرى والمُطفِلاتُ الروائمُ
ولولا رجاءُ الصالحِ الملكِ الذي ... بدولتهِ الدَّهر المقطِّبُ باسم
وإني أُمني النفسَ لثمَ بنانهِ ... وما كان قبلي للسحائبِ لاثم
ففيها منايا للأعادي قواصمٌ ... وفيها بحارٌ للعطايا خَضارم

وتمضي الأبيات في هذه القصيدة على نحو قوي مثير، كأنما هي بحر متلاطم الأمواج، وحينئذٍ يدرك القارئ أن ذلك المطلع القوي، يؤذن بأن وراءه عاطفة قوية.

٢) ومن مظاهر قوة العاطفة في النص الشعري ما نجده من تأكيد الشاعر على أن الكلمات مهما كانت في أعلى مستويات البلاغة والفصاحة فإنها لن تفي بالتعبير المناسب الذي يستحقه ذلك الموقف. ومن الأبيات الرائعة لشاعرنا التي تمثل هذا المظهر قوله في فخره بأهله وقومه الذين أسند لهم المكانة العالية، والأخلاق الرفيعة، ثم ذكر بأنه مهما أثنى عليهم وعبر عن ذلك بألفاظ خلابة ومعاني جزلة فلن يوفيهم حقهم لأنهم فوق الثناء والوصف[١]. يقول في ذلك[٢]:

خُلقٌ نماه أغرُّ أروعُ مي ... مونُ النقيبة ماجدٌ أنِف
من معشرٍ طابتْ مغارسُهم ... فسما لهم فوق السُّها شرف
قومٌ إذا عُدَّتْ مناقبُهم ... كادت لهنَّ الشمسُ تنكسف
لو حاولوا الأفلاكَ ماقصُرتْ ... عنها أكفُّهُمُ ولا ضعفوا
لا عيبَ فيهم غير أنهمُ ... في جُودهم لِعُفاتِهم سرف
أثني بعلمي فيهمُ وهمُ ... فوق الثناء وفوق ما أصف

(١) كمال أبو مصلح، الكامل في النقد الأدبي، المكتبة الحديثة بيروت، ط٣، ١٩٦٦م، ص٧٢.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٥٧.

٣) على أن أجلَّ مظاهر العاطفة القوية في النص هو تأثر السامع به، وتجاوبه النفسي معه، وربما بدا تأثير القصيدة في المستمع أعمق وأبلغ، وذلك حينما يبادر إلى اتخاذ موقف معين نتيجة تأثير ذلك النص الأدبي. يقول كمال أبو مصلح:"وتقاس قوة العاطفة بإثارتها لعاطفة القارئ، والسبب أن إهاجة العواطف ليست وسيلة في الأدب، بل غاية يهدف إليها الأديب وتعتبر أهم الأغراض له"(١). ويقول ابن سينا مبيناً أن غاية الشعر هي التأثير في سامعه:"إن العرب كانت تقول الشعر لوجهين: أحدهما ليؤثر في النفس أمراً من الأمور تعدو به نحو فعل أو انفعال، والثاني: للعجب فقط، فكانت تشبه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه"(٢). فإذا كانت عاطفة الشاعر قوية، وجدنا أن كلماته – في الغالب– لا تذهب هباءً، بل تؤثر غاية التأثير في المستمع "فمصدر القوة الأول نفس الأديب وطبيعته، فيجب أن يكون قوي الشعور عميق العاطفة ليستطيع بث ذلك في أسلوبه، ثم في نفوس قرائه، وإلا فلن ينتظر منا تأثيراً ولا مطاوعة لما يزعم ويصطنع، وهذا سر القوة ومنبع العظمة الأدبية"(٣). ولعل من خير ما يمثل هذه الظاهرة في شعر أسامة بن منقذ قصيدته التي أرّخت لأهم المعارك في ذلك العصر والتي نيفت أبياتها على الستين، وتعد قصيدته تلك وثيقة تسجيلية مهمة وجاءت بعاطفة ملتهبة قوية، حيث افتخر أسامة فيها بقوة المسلمين وبطولتهم وبسالتهم في تلك المعركة وانتصارهم على الإفرنج واستعادتهم للحصون والقلاع والأملاك وانتزاعها منهم انتزاعاً، يقول فيها:(٤)

أبى الله إلا أن يكونَ لنا الأمرُ ... لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العصر
وتخدمنا الأيامُ فيما نَرُومُهُ ... وينقادُ طَوعاً في أَزِمَّتنا الدهر
وتخضعَ أعناقَ الملوكِ لِعزِّنا ... ويُرهبَها منّا على بُعدنا الذِّكر

إلى أن يقول:(٥)

---

(١)كمال أبو مصلح، الكامل في النقد الأدبي، ص ٧٢.

(٢) أرسطو، ترجمة الدكتور:عبدالرحمن بدوي، فن الشعر، دار الثقافة، ط٢، ١٩٧٣م، ص١٧٠.

(٣) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ص١٩٥.

(٤) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٥١.

(٥) المصدر السابق، ص٢٥١.

جعلنا الجهادَ همَّنا واشتغالنا ولم يُلهِنا عنه السَّماعُ ولا الخمرُ
دماءُ العِدا أشهى من الرّاحِ عندنا ووقعُ المواضي فيهمُ النَّاي والوَترُ

ثم يقول:(١)

نسيرُ إلى الأعداءِ والطيرُ فوَّقنا لها القوتُ من أعدائنا ولنا النَّصرُ
فبأس يذوبُ الصخرُ من حّرِ ناره ولطفٌ له بالماء يَنجبسُ الصَّخر
وجيشٌ إذا لاقى العدَّو ظنتهَم أسودُ الشرى عنَّت لها الأُدمُ والعُفْر

إلى أن يقول:(٢)

وكم مثلِ هذا من قلاعٍ ومن قُرًى ومزدرعاتٍ لا يُحيط بها الحصرُ
فلما استعدناها من الكفرِ عِنوةً ولم يبقَ في أقطارِها لهمُ أثر
رددنا على أهل الشآمِ رِباعَهم وأملاكَهم، فانزاحَ عنهم بها الفقرُ

ثم يختم القصيدة بقوله:(٣)

فقل لملوك الأرض:ما الفخرُ في الذي تعدُّونه من فِعلكم بل كذا الفخرُ

بهذا الختام الرائع تفجّرت عاطفة شاعرنا، واستطاع أن يوصل تلك المشاعر القوية، الفياضة في ثوب أنيق جميل، وعاطفة قوية رائعة.

---

(١) أسامة بن منقذ ، الديوان، ص٢٥٣.

(٢)المصدر السابق، ص٢٥٥.

(٣)المصدر السابق، ص٢٥٦.

الفصل الرابع: الصورة الفنية

تعد الصورة الفنية من العناصر المهمة في العمل الأدبي، لأنها تعين الأديب على نقل مشاعره وأحاسيسه وإيصال المعنى إلى المتلقي بطريقة مؤثرة، "والصورة عنصر عمدة لا يخلو منه العمل الأدبي، وطابع أصيل في أي إبداع شعري، وهي وعاء الأديب الذي ينقل به مشاعره وأحاسيسه"[١]، وقد حظيت الصورة بأهمية بالغة في النقد العربي قديماً وحديثاً واهتم النقاد بها وأولوها جل عنايتهم، فالجاحظ يقول:"فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير"[٢]، وتابعه عبدالقاهر الجرجاني في ذلك فقال:"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار"[٣]. وينص حازم القرطاجي على أنَّ:"الأقاويل الشعرية إنما هي تصوير للأشياء الحاصلة في الوجود... وأن المعاني التي تتعلق بإدراك الحسن هي التي تدور عليها مقاصد الشعر"[٤] وقد ظل الاهتمام بالصورة قائماً في ميدان الأدب حتى عصرنا الحاضر، وقد تميز هذا العصر باهتمام نقاده بالصورة أكثر من ذي قبل، إذ ركزوا عليها وأفردوا لها كتباً خاصة كشفوا فيها عن قيمتها الفنية، وعن أهميتها في مجال الأدب. ومن هؤلاء جابر عصفور الذي يتحدث عن أهمية الصورة فيقول:"تنبع أهمية الصورة من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى، وتأثيرها في المتلقي"[٥] والصورة الشعرية مستمدة من مدركات الشاعر ومحيطه، ويقول ابن طباطبا العلوي في ذلك:"واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركته عيانها، ومرت به تجاربها"[٦].

---

(١) إبراهيم بن عبدالرحمن الغنيم، الصورة الفنية في الشعرالعربي (مثال ونقد) الشركة العربية للنشر، ط١، ١٤١٦هـ، ص١٨.

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق:عبدالسلام هارون، شركة ومكتبة مصطفى بمصر، ط٢ ج٣ ص١٣٢.

(٣)دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، ١٩٨٤م، ص٢٥٤.

(٤) أبو حسن حازم القرطاجي، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق:محمد الحبيب ، تونس، ١٩٦٦م ص١٢١.

(٥) جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤م، ص٣٩٩.

(٦) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق وتعليق: د. طه الحاجري، ود.محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٥٦ ص١٨.

والشاعر عندما يلجأ إلى الصورة لا يلجأ إليها عبثاً، وإنما لأنها إحدى الوسائل المؤثرة التي يستخدمها لإخراج ما بقلبه وعقله. "وهي الجوهر الثابت والدائم في الشعر، ويظل الاهتمام بها قائماً مادام هناك شعراء مبدعون ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه وإدراكه، والحكم عليه"[١].

ويعدُّ أسامة بن منقذ الصورة الفنية من محاسن المعاني بقوله:"الاستعارة والتشبيه، والمثل، فاقصد إليها واعتمد عليها"[٢] وكأن أسامة بن منقذ يدلنا على شيء متعارف عليه لدى شعراء الشام في مفهومهم للصورة الفنية. ويقول عبدالجليل عبد المهدي:"تتمثل الصورة الفنية الشعرية في شعر شعراء الشام في القرن الخامس في أشكال البيان، من تشبيه واستعارة، وكناية... وغالباً ما تكون الصورة الفنية حسية، فإما أن تكون بصرية، أو سمعية أو لمسية، أو ذوقية، أو شمية. وهي صور تقليدية في غالب الأحيان، ومنها ما قد يكون مستمداً من العصر الذي يعيش فيه الشعراء، متأثراً بالمظاهر الحضارية فيه" [٣].

وقد "فطن كثير من النقاد إلى أن التصوير الحسي في الشعر أحد خصائصه الجوهرية، فقيمة الشعر تنبثق –غالباً– من لغته التصويرية المحسوسة التي تجسد المعاني والمشاعر في هيئات وأوضاع بشرية عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو التمثيل، ومعنى ذلك:أن الشعر إنما يقوم بوظيفته الفنية حين يقدّم صوراً يدركها المتلقي إدراكاً حسياً فتؤثر في وجدانه، وتنفذ إلى مشاعره، فالحواس هي أبواب المشاعر والنوافذ الطبيعية إليها"[٤]. ولعل مما يميز الصورة الشعرية طابعها الحسي، ولاسيما عند الشعراء الفرسان لأنهم شعراء تعّودوا الاعتماد على حواسهم في رصد تجاربهم القتالية قبل الشعرية، فكان تركيب شعرهم معتمداً على تلك الحواس كذلك لمعرفتهم بأهمية هذه الصور الحسية وثباتها في الذهن أكثر من ثبات الصور المعنوية، فإن "للإدراك الحسي أثره الملحوظ في الإنتاج الأدبي،فإذا كان هذا الإدراك قوياً واضحاً، استطاع الأديب أن يصف ما يحس به وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع"[٥]. وقد كان أسامة من أولئك

---

(١)خالد الزواوي، تطور الصورة في الشعر الجاهلي، ط١، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية ص١٨.

(٢) أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي، والدكتور:حامد عبدالمجيد، شركة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، القاهرة، ١٣٨٠هـ ص٢٩٨.

(٣)عبدالجليل حسن عبدالمهدي، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، مكتبة الأقصى عمان، ط١، ١٣٩٧هـ، ص٣٩٥.

(٤) حسن طبل، المعنى الشعري في التراث النقدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ، ص٧٩.

(٥) عبدالعزيز عتيق، في النقد الأدبي، ص٦٨.

الشعراء والفرسان الذين نقلوا لنا تجاربهم باستخدام الصورة، واستطاع أن يصور لنا أحاسيسه ومشاعره عن طريق أنواع من الصور فقد ظهر في فخره الصور البصرية، والصور السمعية، والصور الذوقية، وقد جاءت منفردة وجاءت مجتمعة؛ وسأحاول أن أعرض بعضا من ذلك حتى نقف على الصور الفنية لدى الشاعر. وتأتي الصورة البصرية في المقدمة لأن "للبصر أهمية في تكوين الصورة الفنية وذلك بأن ينقل الشاعر ما يراه إلى المتلقي ذاكراً أوصافه وأحواله المرئية، أو يبرز أمراً عقلياً في صورة أخرى مرئية، ويذكر صفاته الشكلية أو اللونية"(١)

كما أن:"الصورة البصرية هي مخاض جميع الحواس، وثمرة كل الملكات، فهي الإلهام الذي يأتي الشاعر اتفاقاً نتيجة قراءاته ومشاهداته وتأملاته، بل تجربته التي يحياها بعمق، فيثير عن طريقها خياله وذاكرته على السواء، ليسوق تعبيراً مفعماً بالحركة"(٢)

ومن صور أسامة البصرية قوله:(٣)

أخوضها كشهابِ القذفِ مُبتسماً ... طلقَ المحيا ووجهُ الموتِ قد كَلحا

بصارمٍ من رآه في قَتامٍ وغىً ... أفري به الهامَ ظنَّ البرقَ قد لمحا

فقد رسم الشاعر لنفسه صورة رائعة، حين شبه نفسه بالشهاب المرسل على أعدائه، والفرح والبهجة تملأ وجهه رغم الموت الماثل أمامه وذلك لأنه يصاحبه سيف من يشاهده في الحرب وهو يقطع الرؤوس، يظن أو يتراءى له أن البرق لمع من قوة ضربه وفتكه أو من سرعته، ويقول أيضاً في مثل هذا المعنى: (٤)

أخوضها كشهابِ القذفِ يصحبني ... عَضبٌ كبرقٍ سرى أو ضوءِ مِقباس

فالشاعر يرسم صورة بصرية مضيئة لسيفه وذلك ليشعر المتلقي بأهميته، ولا يخفى ما بين السيف والشهاب الذي ينقض على الشياطين مهلكا إياهم من صلة قوية ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يذكر ذلك على لسان الجن في قوله تعالى﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾(٥)

---

(١) إبراهيم الغنيم، الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد)، ص٨٩.

(٢)محمود عسران، موسيقى الشعر، ص٣٤٥.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٥٩.

(٤) المصدر السابق، ص٢٦١.

(٥) سورة الجن آية ٩

فإذا كان الشهاب يهوي على من يسترق السمع من الشياطين فيهلكه فكذلك سيف أسامة.

ومن صور أسامة البصرية هذه الأبيات التي يصور فيها مشهداً لأحد المعارك حيث يقول:[١]

نرى الجِمالَ المُصحِباتِ بيننا مُهملاتٍ والرجالَ بَددا

موقفُ توديعٍ ترى البيضَ به شُهباً وهابي النقعِ ليلاً أسوداً

وللطِّعانِ في الكماةِ أَعيُناً تَهمي على السَّرد نجيعاً مُزبِدا

فيا له من موقفٍ رقيبُه كتائبُ الأعداءِ والواشي الرَّدى

لقد ساق لنا الشاعر هذه الصور البصرية لأحداث المعركة وكأننا نراها رأي العين، فهذه الجمال وهؤلاء الرجال الصرعى، وهذه السيوف كالشهب، ويرى غبار المعركة الذي حولها ظلاماً وليلاً أسوداً ،وهذا الطعان من الفرسان له أعين تهمي على الدروع دماء مزبدة، وبعد تصويره تلك المشاهد، ختم ذلك بقوله:(فيا له)، تاركاً بذلك مشاهد عديدة للمتلقي أن يتخيلها، ويذهب عقله معها كل مذهب. ومن صوره البصرية قوله:[٢]

ألستُ الذي ما زالَ كهلاً ويافعاً له المكرماتُ الغُرُّ والنائلُ الغَمرُ

وخائضَ وقعاتٍ بوارقها الظُّبا ووابلُ هاتيكَ البروقِ دمٌ هَمْرُ

فمنظر السيوف وهي تقطع رؤوس الأعداء ارتبط في مخيلة الشاعر بمنظر البروق وقد جمع بين هذين المشهدين، حتى يوحي من خلال الصورة بالمنظر الجميل المحبب للنفس والذي يعود بالخير والنفع. كما أنه في إحدى المعارك أخذ يصور لنا ألوان خيول المسلمين يقول:[٣]

وقد كان لونُ الخيلِ شتَّى فأصبحت تُعادُ إلينا وهي من دَمهم شُقرُ

برزنا له كالليثِ فارقَ غِيلَهُ وعادَتُه كِسرُ الفرائس والهَصْرُ

فالشاعر يصور تعدد ألوان الخيول قبل المعركة ثم عند انتهاء المعركة أصبح لها لون واحد من دماء الأعداء، وأخذ يوضح كيف اكتُسِبَ هذا اللون فهو إنما جاء لبسالة الفرسان وشجاعتهم أولئك الذين كانوا كالليوث تعودت كسر فرائسها هصراً. ويقول شاعرنا في فخره بقومه:[٤]

---

(١)أسامة بن منقذ ، الديوان، ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق ، ص٢٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥٢.

(٤) المصدر السابق، ص١٨٤.

يتهلَّلُون لدى النوالِ وفي الوغى يَسطُون بالإرعادِ والإبراقِ

فقد شبه الشاعر شجاعة قومه بالرعد والبرق. وقد رسم الشاعر صورة أوضح لذلك المنظر بقوله:(١)

فأيماننا في السّلمِ سُحبُ مواهبٍ وفي الحرب سحبٌ وبلُهنَّ دمٌ هَمرُ

ولنا أن نتخيل مقدار عطاء قومه في السلم فأيديهم تعطي وتهب، أما في الحرب فأيديهم لا تمطر إلا بالدم وهما كنايتان صائبتان فيهما قدر كبير من التصوير البصري، ولاشك في أنها صورة قديمة مألوفة في الشعر العربي القديم الذي ربط من خلاله الشعراء بين الكرم والشجاعة، ولننظر إلى هذه الصورة صورة الربط بين الشجاعة والكرم عند أبي فراس الحمداني حين يقول مفتخرا بقومه بني حمدان:(٢)

إنا إذا اشتد الزما ن وناب خطب واذْلهمْ
ألفيت حول بيوتنا عُدد الشجاعة والكرمْ
للقا العدا بيض السيو ف وللنّدى حمر النَّعم
هذا وهذا دأبنا يودى دم ويراق دمْ

ومن فخر أسامة بن منقذ بقومه قوله:(٣)

قومٌ إذا لبسوا الحديدَ عَجبتَ من بحرٍ تدافعَ في لظىً مُتوهجِ
صبرٌ إذا ما ضاقَ مُعتركُ القنا فَرجت سُيوفُهم مَضيقَ المنهجِ

فقد صور الشاعر منظر قومه وكثرتهم إذا لبسوا لباس الحرب وكأنهم بحر يتدافع في لظى متوهّج، وهذا التشبيه الرائع أضاف حسناً للصورة البصرية وزادها توهجاً وجمالاً. وقد أكثر أسامة من رصد المشاهد البصرية للمعارك من ذلك قوله:(٤)

صوارمنا حمرُ المضاربِ من دمٍ قوائمُها من جُودنا نضرةٌ خُضْرُ
وجيشٌ إذا لاقى العدو ظنتَهم أُسودَ الشَّرى عنَّت لها الأُدُم الُعْفر

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص٢٥١.

(٢) خليل الدويهي، شرح ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م، ص٢٨٥.

(٣)أسامة بن منقذ ، الديوان ، ص٢٥٩.

(٤) المصدر السابق، ص٢٥٣.

ترى كل شهمٍ في الوغى مثل سَهمه نفوذاً فما يثنيه خوفٌ ولا كُثْرُ
هم الأُسدُ من بيضِ الصوارم والقَنا لهم في الوغى النَّابُ الحديدةُ والظُّفْرُ

فقد جمع الشاعر مجموعة من الصور البصرية، فسيوفهم حمرٌ من دماء الأعداء وهي كناية عن الشجاعة وكثرة الضرب بها، ثم شبه جيوشهم عند ملاقاة الأعداء بالأسود، وشبه الفرسان بالسهام في قوة نفوذهم وسطوتهم ثم عاد إلى جيشهم وشبهم بالأسود ثم ذكر أن سيوفهم هي بمثابة الأنياب والأظفار، ولعله أراد أن يوضح سبب تشبيه الجيش بالأسود.

وكما أن للصورة البصرية أهمية عظمى في تصوير الشاعر فإن للصورة السمعية أيضاً مكانة عالية ودورا بارزا في إيصال تجربة الشاعر "إنَّ للسمع جلاءً، وإن للمسموع حضوراً ذهنياً أسمى مما يدرك بالنظر، والسمع قد ينفع المرء حين لا ينفعه البصر، واستشعار الجمال يكمن في السمع كما يكمن في البصر تماماً "[١].

ومن صور أسامة السمعية قوله وهو يصف حربهم مع الافرنج في إحدى المعارك[٢]:

وحربٌ لها الأرواحُ زاهقةٌ لما تُعاينُ والأصواتُ من دَهَشٍ لَغَطُ
إذا أرسلتَ فَرعاً من النَّقع فاحِماً أثيثاً فأسنانُ الرماحِ لها مُشط

فهذه الصورة السمعية التي ساقها شاعرنا جعلتنا نتخيل ونصغي بأسماعنا لأصوات المعركة وما فيها من قتلى ومصابين يئنون من وطأة السيوف والرماح والسهام. ومن صوره السمعية تصويره لهروب قائد الإفرنج[٣]:

فولى يُباري عَائراتِ سِهامنا وفي سمعِه من وقعِ أسيافنا وَقر
وخلَّى لنا فرسانَهُ وحُماتَه فشطرٌ له قتلٌ، وشطرٌ له أسر

فالقائد من شدة الأصوات التي سمعها في الحرب وخصوصاً وقع السيوف، أصابه الصمم، فلم يعد يستطيع السمع. ويقول أسامة أيضا [٤]:

وأضحى عليه للسِّهام وللظُّبَا ووقعُ المذاكي الرعدُ والبرقُ والقطرُ
بنا استرجعَ اللهُ البلادَ وأمَّنَ الـ عبادَ، فلا خوفٌ عليهم ولا قَهر

---

(١) محمود عسران، موسيقى الشعر، ص ٣٥٠.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٤)المصدر السابق، ص ٢٥٤.

يصور أسامة هروب قائد الأفرنج وملاحقة الفرسان له ورميهم له بالسهام مثل صوت الرعد وسطوع البرق وانهمال المطر. ومن صوره السمعية وهو يصِف شجاعته قوله[١]:

إذا ضاقَ بالخَطِّي مُعتركُ الوغى وهالَ الردى وقعُ الظُّبا في الجَمَاجم
سل الموتَ عني فهو يشهدُ أنني على خوضه في الحرب ثبتُ العزائم

فالشاعر يحرص على إثبات الشجاعة لنفسه، حتى إنه جعل الموت شاهداً على تلك الشجاعة التي أظهرها وقت اشتداد الحرب، وعبر عن تلك الشدة بوقت استخدام السيوف التي لها وقع وصوت خاص عند قطع الرؤوس، فلضرب السيوف للجماجم صوت يدل على الشجاعة والبطولة.

أما الصورة الذوقية فقد تجلت عند شاعرنا من خلال عرضه لطعم الموت ومن ذلك قوله[٢]:

والبيضُ والسُمرُ لا تُروى بغيرِ دمٍ من كل جائشةِ الأرجاءِ بالزَبد
صَدِينَ حتى جلاها في النحورِ وفي ال هاماتِ أَورغُ يُروى غُلّ كلِّ صدِ

فأدواته الحربية لا تروى بغير الدماء. وقد تداخلت الصورة الحسية عند أسامة فجمع بين الصورة السمعية والذوقية والبصرية من ذلك قوله[٣]:

جعلنا الجهادَ همَّنا واشتغالنا ولم يُلهنا عنه السَّماعُ ولا الخمر
دماءُ العِدا أشهى من الرَّاحِ عندنا ووقعُ المواضي فيهمُ النّايُ والوَترُ

وأخيراً أحسب أن أسامة بن منقذ قد استطاع أن ينقل لنا مشاعره وأحاسيسه، وأن يعبر عنها عن طريق التصوير لإدراكه لأهمية الصورة الفنية في الشعر، وقد أُستمدت تلك الصور من المعارك التي خاضها، ومن الدماء الجارية والسيوف اللامعة، والرماح المشجرة، والجيوش الكثيفة كقطع الليل، وجاءت صوره متنوعة بين الصور البصرية، والسمعية، والذوقية، وكانت خالية من المبالغة الممقوتة، ولعل شدة إخلاص الشاعر وانصرافه للتعبير عن همومه الخاصة، جعلاه يُعْنىَ بالتعبير السهل دون تعقيد فلا نكاد نرى في شعره حيلة من حيل الغلوْ أو مظهراً من مظاهر الصنعة والتكلف.

---

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥١.

الفصل الخامس:الموسيقي

الأدب فن ينبعث من نفس قائله، ويأتي مشحوناً بمشاعره وتظهر تلك المشاعر في عدة أمور في النص الأدبي، من بينها الموسيقي فعندما تكون مشاعر الأديب هادئة متنوعة تجد أدبه يحمل قيماً صوتية هادئة، وعندما يكون غاضباً ثائراً، فإن أدبه يحمل قيماً صوتية صاخبة، تحكي ما يثور في نفسه. وبقدر ما يتوافر في الأدب من موسيقى فإن تأثيره في المتلقي يكون أقوى وأعمق إذا وافق الحال التي يعيش تحت وطأتها. وتتمثل الموسيقى في الوزن والقافية بالإضافة إلى ذلك الإيقاع الداخلي الذي ينشأ من حسن تآلف الكلمات وتجانس حروفها في البناء العام للقصيدة. ولهذه الموسيقى "شأن كبير في الشعر، وذلك لأنها إذا ارتفعت إلى أسمى درجاتها استطاعت أن تؤثر في نفوس السامعين دون الحاجة إلى فهم الأفكار التي تحملها، فلا يكادون يسمعونها حتى يجدوا لذة جميلة لا يستطيعون أن يرجعوها إلى مصدر سوى هذه النغمات السحرية التي يبثها الشاعر في آثاره الشعرية" [١] كما أن "الشعر إن لم يهز ويثير بموسيقاه ، يفقد أهم عناصره ولا يعد شعراً"[٢] والموسيقى في النص الأدبي ليست غاية من غايات الأدب، وإنما هي وسيلة من وسائله المهمة التي يؤثر بها في المتلقي حتى يصل إلى المعنى في أجمل حلة.

ولها دور بارز في الشعر فهي "تزيد من انتباهنا ، وتضفي على الكلمات حياة فوق حياتها، وتجعلنا نحس بمعانيه كأنما تمثل أمام أعيننا تمثيلاً واقعياً. هذا إلى أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال ، وتجعله مصقولاً مهذباً تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه"[٣]

وما دامت الموسيقى تحتل المكانة العالية في الأدب فإننا سنقف عليها في شعر أسامة بن منقذ من خلال فخره وفروسيته، ولكي تتجلى تلك الموسيقى فسوف أدرسها من خلال:الوزن والقافية، وهما يشكلان الإيقاع الخارجي، ومن خلال القيم الصوتية الداخلية التي تقوم على العلاقات الصوتية داخل الكلمة وبين الكلمات في التراكيب الشعرية وهي تشكل الموسيقى الداخلية.

---

(١) شوقي ضيف، في التراث والشعر واللغة ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٧، ص٨٥.

(٢) مصطفى عبد اللطيف السحرتي، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، ط٢، جدة، تهامة للنشر والمكاتب، ١٤٠٤هـ ، ص٥٥.

(٣) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط ٥ ، ص ١٦.

أولاً : الموسيقى الخارجية وتتمثل في الوزن والقافية:

للوزن أهمية لا تخفى، "فهو أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة" [١] " والكلام لا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية"[٢] ، ولهذا فلا بد "أن يكون للشعر نظام معين في ترتيب الوحدات الوزنية التي يتألف منها الكلام بحيث ينتج عن ذلك وزن جميل وموسيقى عذبة تنفعل لها النفوس وتتأثر بها القلوب" [٣].

فالوزن والقافية هما:"ركنا الموسيقا في الشعر، واللذان لا يقوم إلا بهما، ولا يغني أحدهما عن الآخر، بل لا بد أن يتوافر كلاهما بطريقة ما حتى يكون للقصيدة جوها الموسيقي الكامل الذي هو علامة فارقة في الشعر" [٤]

ويقصد بالوزن بحور الشعر العربي، ولقد تحدث نقادنا القدامى عن ضرورة الملاءمة بين الوزن والانفعال فوضعوا لكل غرض من الأغراض الشعرية وزناً خاصاً به "فالطويل يتسع للفخر والحماسة ....، والكامل يصلح لكل نوع من أنواع الشعر، والوافر أكثر ما يجود به النظم في الفخر .. وفيه تجود المراثي ، والرمل بحر الرقة ، فيجود نظمه في الأحزان والأفراح"[٥]

وقد اشترط النقاد لجودة الشعر أن تلتحم أجزاء نظمه ، وتلتئم على تخير من لذيذ الوزن الذي "يطرب الطبع لإيقاعه، ويمازجه بصفائه، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه، واعتدال نظومه"[٦]

وقد يتبادر إلى أذهاننا سؤال مهم:هل يختار الشاعر البحر الذي ينظم عليه قصيدته اختياراً واعياً ومحدداً؟ أم يجيئ البحر عرضاً؟

والإجابة هي أن الشاعر لا يحدد لنفسه البحر الذي ينظم فيه تحديداً مقصوداً، وإنما يتم تحديد البحر من خلال التحرك مع انفعالات النفس، هذه الانفعالات التي تسقط على الوزن الذي

---

(١) ابن رشيق، العمدة ، ص ٢٦٨

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٤

(٣) إسماعيل جبرائيل العيسى، نقض أصول الشعر الحر دراسة نقدية في العروض وأوزان الشعر الحر، ط ١ ، الأردن . عمان، دار الفرقان ، ١٤٠٦هـ ، ص ٦٩.

(٤) وليد قصاب، دراسات في النقد الأدبي، ط١ ، الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ ص ٦٧.

(٥) سليمان البستاني مقدمة تعريب إلياذة هوميروس، ج١ ص ٩١ . ٩٣

(٦) أبو علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق:أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م ، ١٠/١

يصرف لها ، لأن نظم الشعر وقرض القصيد أقدم من علم العروض الذي اهتدى إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ).

ويؤيد ذلك أن كثيراً من الشعراء لا علم لهم البتة بعلم العروض ، ولو كان الشعراء يختارون الأوزان والقوافي التي يبنون عليها قصائدهم لتحول الشعر من تجربة شعورية إلى تجربة مادية لا أثر فيها للمعاناة النفسية.

وعندما قلّبت الأوزان التي نظم فيها أسامة بن منقذ في فخره وفروسيته كما يظهر في هذا الجدول أن البحور التي نظم عليها كالتالي :

الوزن	عدد مرات مجيئه
الطويل	٢٢
البسيط	٢١
الكامل	٢٠
الرجز	٤
الخفيف	١
المنسرح	١
السريع	١
مجزوء الكامل	١

ظهر لي أن الشاعر :

١) نظم بحوره في ثمانية أوزان كلها كاملة إلا وزناً واحداً حيث نظم فيه على مجزوء الكامل.

٢) نهج شاعرنا في أوزانه وبحوره نهج الشعراء القدامى فقد نظم على بحر الطويل اثنين وعشرين مرة، يليه بحر البسيط بإحدى وعشرين مرة، ثم بحر الكامل بعشرين مرة، ثم بحر الرجز نظم فيه أربع مرات، ثم نظم في كل من بحر الخفيف والمنسرح، والسريع مرة واحدة، ويتضح مما سبق أن أكثر البحور نظماً عنده في فخره وفروسيته بحر الطويل.

وقد نص أبو العلاء المعري أن العرب كانت تسمى بحر الطويل بـ "الرَّكوب لكثرة ما كانوا يركبونه في أشعارهم"[١].

والطويل بحر العمق والجلال والجد، فيه الفخامة والأبهة وشرف اللفظ وهدوء النفس واستثارة الخيال وتخير المعاني [٢]، والكامل أكثر البحور الشعرية جلجلة وحركات، وفيه لون خاص من الموسيقى، تجعله إن أريد به الجد فخماً جميلاً، وإن أريد به الغزل وما يجري مجراه من أبواب اللين والرقة جاء حلواً رقيقاً [٣]، وهو من أصلح البحور لإبراز العواطف البسيطة غير المعقدة، كالغضب والفرح، والفخر المحض، وما إلى ذلك" [٤] والبسيط أخو الطويل في الجلالة والروعة، ويصلح لما يصلح له" [٥]

٣) نلاحظ من خلال الجدول السابق خلو شعر أسامة بن منقذ من أوزان المديد والمجتث، والمتدارك، و المقتضب والمضارع، والهزج، ولا غرابة في ذلك، فالمديد والمجتث والمتدارك من البحور الصعبة التي لم يرد عليها من النظم إلا القليل، وأما المقتضب والمضارع والمجتث فقلّ أن توجد في أشعار المتقدمين، وقد صرّح أبو العلاء المعري "بأن المقتضب والمضارع مفقودان في شعر العرب" [٦]

٤) نلاحظ من خلال الجدول السابق كذلك أن شاعرنا كان محافظاً على الأوزان التقليدية القديمة، فلم تكن له محاولة تجديدية تخرج عن هذا الإطار، فلم ينظم في مخلّع البسيط الذي بدأ يشق طريقه بين الأوزان العروضية في الحقبة العباسية من القرن الثاني[٧]

---

(١) أبو العلاء المعري، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، تحقيق:محمود حسن زاناتي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٥٦هـ. ١٩٣٨هـ ص ٢١٢.

(٢) عبد الله الطيب، المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الفكر، ط٢، الخرطوم، ١٩٧٠م، ١/٣٨١-٣٨٢.

(٣) المرجع السابق ٢٤٦/١

(٤) المرجع السابق ٢٥٨/١

(٥) المرجع السابق ٤٤١/١.

(٦) أبو العلاء المعري، الفصول والغايات، تحقيق:محمود حسن زاناتي، ص ١٣٢.

(٧)إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ١٩٦.

وعندما نقلب شعر أسامة بن منقذ في فخره وفروسيته نجد أن موسيقاه، متناغمة مع مشاعره وعواطفه وأذكر مثالين على ذلك الأول:قصيدته التي قالها على لسان نور الدين زنكي وهي قوله:(١)

أبى الله إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العصرُ

فقد جاءت من بحر الطويل الذي يناسب الحالة الشعورية التي كان يشعر بها الشاعر فاختار هذا البحر الذي فيه الفخامة والأبهة وشرف اللفظ، وجاءت أبياته معبرةً عن عواطفه ومشاعره. الثاني:أبياته التي افتخر فيها بقومه فقد جاءت في معظمها من بحر الكامل وهو من أكثر البحور الشعرية جلجلة وحركة، وفيه لون خاص من الموسيقى ومن أصلح البحور في إبراز العواطف الدالة على الفخر. يقول أسامة في إحدى قصائده التي افتخر بها بقومه:(٢)

كانوا شجىً في صدرِ كلِّ معاندٍ وقذىً يجولُ بعين كلِّ محاول

[ب] القافية : القافية تعد شريكة الوزن وهما متآخيان ولا تكتمل عناصر الشعر إلا بهما، وتعدُّ القافية فاصلة موسيقية تنتهي عندها موجة النغم في البيت، وينتهي عندها سبيل الإيقاع، ثم يبدأ البيت من جديد كالموجة تصل إلى ذروتها وتنتهي لتعود من جديد وهي: "الدعامة التي يقوم عليها الوزن"(٣) وهي تعد:"قمة الوزن الشعري ففيها يتمثل تركيز الوزن النهائي" (٤)، والقافية:"شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر" (٥)

وتعد القافية ختام الموسيقى النغمية في البيت الواحد، وعند القافية تتوقف المعاني والأفكار مع موجات النغم المتدافعة في التفعيلات، ويكون لهذه الوقفة القصيرة أثرها في تثبيت معنى البيت وتنشأ عن تردد القوافي لذة موسيقية خاصة ومتميزة. (٦)

وأجمع تعريف للقافية ما ذهب إليه الخليل حين قال:"والقافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن" (٧)

---

(١) أسامة بن منقذ ، الديوان، ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥.

(٣) شكري محمد عياد، موسيقى الشعر العربي، دراسة علمية، ط٢، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٧٨م ص١١٥.

(٤) أحمد كشك، القافية تاج الإيقاع الشعري، مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية، ص ١٤٥.

(٥) ابن رشيق، العمدة، ص ٢٩٤.

(٦) محمد سلام زغلول، تاريخ النقد الأدبي حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص ٤١.

(٧) ابن رشيق، العمدة ١٥١/١.

وقد اشترط النقاد العرب:"مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائها للقافية، وقالوا: إن القافية يجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوفها المعنى بحقّه، واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقة في مقرّها" [١]، ورأوا أن تكون القوافي : "عذبة الحرف، سلسلة المخرج" [٢]، وأن على الشاعر أن يختار القوافي التي توافقه وتحتمل معانيه، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية، ولا تتمكن فيه أخرى.... أو تكون في هذه أقرب طريقاً، وأيسر كلفة منه في تلك .... فينبغي أن تأخذ في طريق تسهل عليك حكايته فيها، وتركب قافية تطيعك في استيفائك له"[٣].

وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر، وحسبك دليلاً أن جميع الشعراء يطربون لبعض القوافي دون البعض الآخر، وإذا نظم واحد قصيدتين على بحر واحد ونفس واحد، فلا ريب أن القافية الغناء تميل بالسامع إلى إيثارها على أختها [٤].

فالقافية لها مكانتها الخاصة بالتطريب بإعادة الأصوات، ولها وظيفتها ا لجمالية بوصفها نهاية البيت الشعري، وأما الصوت الأخير منها:وهو الرَّوي فهو النغمة الموسيقية الخاصة التي ترد إليها الأصوات السابقة وتردها في أواخر الأبيات الشعرية.

وهو جزء مهمٌ من الموسيقى الشعرية، ويساهم مساهمة فعالة في الإيقاع الخارجي في البيت الواحد.

وبعد أن رأينا أهمية القافية بوصفها جزءاً من موسيقى الشعر. سأحاول أن أورد عدد مرات تكرار حرف الروي الذي جاء في أبيات أسامة بن منقذ في فخره، وفروسيته وفق الجدول التالي:

حرف الرَّوي	عدد مرات مجيئه
حرف الراء	١٤
حرف الميم	١٣
حرف القاف	١٠
حرف الدال	٧

(١) أبو علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق:أحمد أمين، وعبد السلام هارون، ص١١.

(٢) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق:كمال زكي، ص ٥١.

(٣) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق:الدكتور مفيد قميحة، ص ١٥٧.

(٤) شرح إلياذة هوميروس ص ٩٥ .

حرف النون	٦
حرف الفاء	٤
حرف السين	٣
حرف الباء	٢
حرف الجيم	١
حرف الثاء	١
حرف الحاء	١
حرف الياء	١

عند التأمل وإمعان النظر في الجدول السابق نلاحظ ما يأتي :

١) نظم شاعرنا على أحد عشر روياً من حروف المعجم.

٢) شاع في شعر أسامة بن منقذ في فخره وفروسيته حروف الروي: الراء ، والميم واللام والدال، وهي التي تعرف بالقوافي الذلل[١]. وهذه القوافي الذلل هي التي أكثر منها الشعراء في الشعر العربي، فشيوع الراء كثير في الشعر العربي القديم، ونحو ذلك اللام والميم فهما من أحلى الحروف دوراناً على الألسنة، وذلك لسهولة مخرجيهما وكثرة صوتيهما في الكلام من غير إسراف.

٣) ابتعد شاعرنا عن القوافي النُّفْر وهي:الصاد، والزاي، والضاد، والطاء، والهاء، والواو[٢]، فلم ترد روياً في شعره وهذه الحروف قليلة الشيوع في الشعر العربي.

كما ابتعد شاعرنا أيضاً عن القوافي الحوش وهي الثاء، الخاء، والذال، والشين، والغين، فلم ترد روياً في شعره ما عدا الثاء فإنه ورد مرة واحدة. وأما القوافي التي تقترب من القوافي الذلل وهي:الحاء، والسين، والفاء، والقاف، والجيم، فقد نظم فيها شاعرنا بنسب متفاوتة.

---

(١) عبد الله الطيب، المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها، ١/ ٤٦-٤٨

(٢) المرجع السابق ، ٥٩/١

٤) نَهَج شاعرنا في قوافيه نهْج الشعراء المتقدمين وعمد إلى استخدام القوافي الذلل، وما يقترب منها لشيوعها، ولما تضيفه من النغم الموسيقي الذي تستعذبه الأذن، ولهذا اتسمت قوافيه بالتمكن والعذوبة.

جاءت معظم قوافي الشاعر من قبيل القوافي المطلقة ولعل مرد ذلك إلى تميز القافية المطلقة على المقيدة فهي أكثر وقعاً في السمع، وأشد أسراً للسامع فالرويّ فيها يعتمد على تلك الحركة المنبثقة منه التي قد تطول في الإنشاد، وتصبح حينئذٍ حرف مد وقد استقر عند علماء الأصوات أن هذه الحركة المنبثقة من الروي يصبح لها من التأثير القوي في الأذن ما يفوق تأثير الروي ذاته [١].

ولا شك في أن هذا يكسب القافية نغماً موسيقياً عذباً تستلذه الأذن، ويطرب له السمع وهو ما حرص عليه شاعرنا، وأما القافية المقيدة فهي أقل وضوحاً في السمع، وربما تغمض أحياناً حتى لا تكاد تستبين حقيقة الحرف أو تحس موسيقاه بصفاء ووضوح.

ثانياً : الموسيقى الداخلية:

إذا كانت الموسيقى الخارجية محكومة بالعروض والقافية فإن الموسيقى الداخلية تتحكمها قيم صوتية باطنية، هي أوسع وأشمل من الوزن والقافية. ولكل شاعر نغم وموسيقى خاصة به تختلف عن غيره مع أنهم يعزفون على أوتار قيثارة واحدة هي قيثارة الشعر إلا أن لكل واحدٍ منهم نغمة موسيقية، ونفساً شعرياً خاصاً به، وليست العبرة بالقوالب العروضية التي يصب فيها الشاعر تجربته فيما يعرف بالوزن والقافية فتلك هي الموسيقى الخارجية وإلى جانبها موسيقى داخلية تنبع من اختيار الشاعر لألفاظه، وما يشيع فيها من معان تتلاءم فيها الحروف والحركات، وبذلك يكون للشاعر أذنٌ داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى نستطيع أن نميز بين شاعر وآخر.

وإلى هذا أشار بعض الباحثين فقال:"هناك ناحية أخرى لتأثير الكلمات وهي التي ينظر فيها إلى الكلمات متتالية متعاقبة، وهذا ما يعبّر عنه بالانسجام، أو موسيقى اللفظ .... وهذه الموسيقى اللفظية هي بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات في فن الأدب" [٢]

---

(١) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٧٥م ، ص ٢٦-٢٧

(٢) لاسل آبر كرومبي، قواعد النقد الأدبي ، ص ٤١-٤٢

وقد أدرك الشاعر الصفات التي تجعل لألفاظه أثراً موسيقياً، فعمد إلى التلوين في الموسيقى لمزيد من الإيحاء والتأثير بما يسمى بالموسيقى الداخلية التي تنبع من أكثر من طريق، منها أن يعمد الشاعر إلى اختيار كلمات ذات وقع خاص، وخصائص صوتية ساحرة تساعد على نقل التجربة الشعرية نقلاً إيحائياً كما في قول أسامة [١]:

يقولون قد أعْولتَ في الدار ما كفا ... وليس على ربعٍ عَفا بِمعُوَّلِ

فقلت نعم : هذي ديارٌ عهدتُها ... عرينَ أُسودي في الخطوبِ ومعقلي

فألفاظ الشاعر التي اختارها:أعولت، ربع، عفا، ديار، ذات وقع خاص، وخصائص صوتية تضفي على أسلوبه رقّة وعذوبة، وتعبر عما أصاب الشاعر من ألم وحزن حينما فقد أهله وديارَه ومن أمثال هذا التناغم قول أسامة:[٢]

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماة ... إلى أن شبتُ فيها وخير الخيلِ ما قَرَحا

أخوضُها كشهابِ القذفِ مبتسماً ... طلقَ المحيا ووجهُ الموت قد كَلحا

بصارمٍ، من رآهُ في قَتام وغىً ... أفري به الهامَ، ظنَّ البرقَ قد لَمحا

أغدو لنارِ الوغى في الحربِ إن خَمَدت ... بالبيضِ في البَيْض والهاماتِ مُقتدحا

فسلْ كُماة الوغي عنِّي، لتعلم كم ... كربٍ كشفتُ، وكم ضيقٍ بي انفسحا

فالشاعر هنا اختار الكلمات الممدودة مثل: "قرحا ،كلما ، لمحا ، مقتدحا، انفسحا" وكلها مما يناسب الجو النفسي البطولي لحالة الشاعر. ومن تلك الطرق أن يتوخى الشاعر تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو ما يسمى بالتصريع الذي يعد من التلوين الداخلي للموسيقى كما في قول أسامة [٣] :

أبى الله إلا أن يكونَ لنا الأمرُ ... لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العصر

إن انتقاء الشاعر لألفاظه يشبه انتقاء الرسام لألوانه والموسيقيِّ لألحانه، وهو بذلك يرتفع عن مجرّد التعبير العادي إلى تعبير جمالي ولعلّ ذلك يتحقق في الموسيقى الداخلية.

لذا نجد أن شاعرنا قد سعى إلى إضفاء عناصر موسيقية داخلية بغية إثراء الإيقاع وتوضيح المعاني، وحقق بذلك قدراً كافياً من التوافق بين إيقاع التجربة ومضمونها.

---

(١)أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ص ٣٠٤.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان ، ص ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥١.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فبعد أن أعانني الله ووفقني لإتمام هذه الدارسة الموسومة بـ ((**الفخر والفروسية في شعر أسامة بن منقذ**)) تأتي هذه الخاتمة لتبين ما أسفر عنه هذا البحث وما أضافه من جديد في مسيرة الدراسات الأدبية والنقدية، وسأعرض في هذه الخاتمة بإيجاز أبرز معالم هذه الدارسة مشيراً إلى نتائجها، ففي هذه الدارسة حاولت في التمهيد أن أتحدث باختصار عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر أسامة بن منقذ، ثم تحدثت عن حياته وشاعريته وثقافته، ثم انتقلت إلى ماهية الفخر ومضامينه.

بعد ذلك انتقلت إلى الدارسة الموضوعية التي جاءت في ثلاثة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن فخره بفروسيته الحربية واعتداده بنفسه وبمشاركته في المعارك ضد الصليبين وذكرت استعماله لأدوات الحرب كالفرس والسيف والرمح والسهم. ثم تحدثت في الفصل الثاني عن فخره بسجاياه وخصاله الحميدة، فقد تحلى بجملة من الأخلاق الرائعة كالصبر والحلم والشجاعة والوفاء والصدق.. وكانت علامة بارزة في فروسيته. ثم تحدثت في الفصل الثالث عن فخره بقبيلته وكريم نسبه فهو منحدر من أسرة عالية في الحسب كريمة في المجد، من بيت علم وشعر، فقد أقاموا في إمارة شيزر وعمروها ودافعوا عنها وكانوا أسود حرب في النهار ورهبان ليل. ثم انتقلت إلى الدارسة الفنية التي جاءت في خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول الألفاظ والتراكيب التي دارت في شعر أسامة.

ثم تحدثت في الفصل الثاني عن المعاني والأفكار، ثم انتقلت في الفصل الثالث إلى العاطفة، ثم تحدثت في الفصل الرابع عن الصورة الفنية، ثم جاء ختام الدارسة الفنية بالحديث في الفصل الخامس عن الموسيقى. وظهر لي في نهاية هذا البحث ما يلي :

١) كان للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية أثر واضح على نتاج الشاعر، فقد أسهمت في تكوين شاعريته، وجعلت منه فارساً مقداماً وأميراً هماماً برغم ما تعرضت له المنطقة في عصره من عواصف وتيارات وحملات صليبية غاشمة.

٢) تبين من الدارسة أن عصر الشاعر وهو القرن السادس الهجري، على ما فيه من فتن وحروب واضطرابات سياسية كان عصراً زاهراً في أدبه، زاهياً في نتاجه الشعري وكان يمثل فترة من أخصب الفترات عبر عصور الأدب العربي.

٣) تبين من الدارسة أن شاعرنا يعد من الشعراء الذين ارتبطت موضوعاتهم الشعرية بشخصياتهم ومواقفهم وبرؤاهم الفنية، ولهذا جاء شعره مجسداً لشخصية قائله يروي حياته ويبرز ملامحها.

٤) أظهرت الدارسة أن أسامة استطاع أن يطلعنا من خلال شعره على فخره وفروسيته الحربية وأن يظهر لنا فخره بما يحمله من خصال حميدة، وأن يبين لنا فخره بقبيلته العريقة؛ وذلك لأن لديه نفساً تواقة تطمح إلى المعالي ولا تبالي بالمحن والعقبات.

٥) جاءت لغة شاعرنا معبّرة عن عصره ومجتمعه، وقد اتسمت ألفاظه وتراكيبه بالوضوح والسهولة إلا ما كان من ذكر الحرب وأدواتها كما برزت اللغة الافتخارية في شعره، ولم يغرق في استعمال المحسنات البديعية بل جاءت في شعره دون تكلف أو تصنع.

٦) تبين من الدارسة أن أفكار ومعاني الشاعر جاءت متصفة بالعمق والوضوح في أغلبها فهو لا ينتمي إلى المذاهب الفلسفية، وليس ممن يقحمون أفكارهم في تلك الطرق الشائكة.

٧) اتضح من خلال الدارسة صلة الشاعر بتراثه القديم وبشعراء عصره من عمالقة الشعر في ذلك العصر؛ كإعجابه بالمتنبي وأبي فراس الحمداني وكل ذلك لا ينفي شاعريته بل يزيدها نفوذاً.

٨) تبين من الدارسة أن الشاعر يمتلك عاطفة جياشة ملتهبة ظهرت في مواطن فخره ولا سيما حينما فقد أهله وإرث أجداده في الزلزلة العظيمة.

٩) اتضح من الدارسة أن الشاعر استطاع أن ينقل مشاعره وأحاسيسه عن طريق التصوير وقد استُمدَّت تلك الصور من البيئة الحربية التي عاشها ومن الدماء الجارية والسيوف

اللامعة، والجيوش الكثيفة واستطاع أن يتكئ في تصويره على الصور البصرية والسمعية والذوقية، وكانت خالية من المبالغة الممقوتة.

١٠) كان استخدام الشاعر للأوزان الشعرية متسقاً مع المنظومة الشائعة في الشعر العربي من حيث كثرة النظم في بعض البحور، وقلته في بحور بعينها، ومحافظته على الأوزان التقليدية وعدم الخروج عليها.

١١) اهتم الشاعر بالقوافي وحرف الروي التي جاءت متناغمة من حيث شيوع القوافي الذلل، إضافة إلى شيوع القوافي المطلقة.

١٢) ظهر في فخر أسامة رواء الطبع، وعّزة الملك فقد ترفع عن المديح الرخيص، واستجداء الخصوم حتى في أحلك الظروف وأشد الأزمات، وذلك أثر من آثار نشأته فهو أمير وفارس، وعالم نحرير، وعابد متهجد

١٣) وفي ختام هذا البحث لا أملك إلا الدعاء لكل من ساهم فيه سواء بنصح أو بمشورة أو بمساعدة، وأسال الله أن يجزيهم عني خير الجزاء وإن كان في هذا العمل المتواضع من صواب فمن الله وإن كان فيه من خطأ أو زلل فمن نفسي والشيطان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ، ط٥، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥م.

٣) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ط٥، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ،١٩٧٥م.

٤) إبراهيم بن عبدالرحمن الغنيم ، الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد) ، ط١،الشركة العربية للنشر، ، ١٤١٦هـ.

٥) ابن الأثير،الكامل في التاريخ: تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، ط١ ،بيروت، دار الكتاب العربي ،١٩٩٧م.

٦) ابن خلكان: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق : إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧م.

٧) امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق : حسن السندوبي ، ط٥ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٤م.

٨) ابن دريد، جمهرة اللغة، حققه وقدّم له:رمزي منير بعلبكي، ط١، بيروت ،دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

٩) ابن زكريا ،مجمل اللغة، ، تحقيق الشيخ:هادي حسن حمودي، ط١ الكويت ،منشورات معهد المخطوطات العربية، ، ١٩٨٥م.

١٠) ابن سيدة أبي الحسين علي بن إسماعيل، المخصص، بيروت ، دار الكتب العلمية، د. ط، د. ت.

١١) ابن عساكر، أبي القاسم علي الشافعي تاريخ دمشق، ، ترتيب وتصحيح:عبد القادر بدران، مطبعة روضة الشام،١٩١١م.

١٢) ابن فارس ،مقاييس اللغة ، تحقيق وضبط:عبدا لسلام هارون، مصر، دار الفكر١٩٧٩م .

١٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط٢ ،مصر ، دار المعارف ، ١٣٧٦هـ – ١٩٦٧م.

١٤) ابن كثير ،البداية والنهاية ، توثيق الشيخ علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط١ دار بيروت لبنان، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٤م.

١٥) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشَّيال، مطبعة وجامعة فؤاد الأول ،دار إحياء التراث القديم ، ١٩٥٣م.

١٦) أبو البقاء العكبري ديوان أبي الطيب المتنبي، ، التبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، مصر، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٩ - ١٩٧٣م.

١٧) أبو العلاء المعري، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، تحقيق:محمود حسن زاناتي بيروت ،دار الآفاق الجديدة ، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م.

١٨) أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال زكي، ط٣،د.ت.

١٩) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط٢ القاهرة، المكتبة التجارية ،١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

٢٠) أبو حسن حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجه، تونس ١٩٦٦م.

٢١) أبو شامة عبدالرحمن المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٥٦م.

٢٢) أبو عبد الله محمد الأعرابي،كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها، تحقيق ودارسة: محمد عبدالقادر أحمد، ط١ ،مكتبة النهضة المصرية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،الحيوان، ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢ ، مصر ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٥ - ١٩٦٥م.

٢٤) أبو علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط١ ،دار الجيل، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢٥) أبو علي: الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة تحقيق: محي الدين عبدا لحميد، ط٢، القاهرة المكتبة التجارية ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

٢٦) أبو قيس صيفي بن الأسلت الأوسي ،الديوان ، دراسة وجمع وتحقيق ، حسن باجودة، مكتبة التراث، ١٩٧٣م.

٢٧) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبية الدينوري ، عيون الأخبار ، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م.

٢٨) أبو محمد: عبدالله بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة ، ط١ ، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢٩) أبو هلال العسكري ،الصناعتين ، تحقيق : مفيد قميحة، ط٢ ،بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣٠) أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ط٤، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٤م.

٣١) أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي، ط٨، القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣م.

٣٢) أحمد علي إسماعيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس ،ط١،الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

٣٣) أحمد كشك مكة المكرمة، القافية تاج الإيقاع الشعري، المكتبة الفيصلية. د.ط،د.ت

٣٤) أحمد كمال زكي، النقد الأدبي أصوله واتجاهاته، بيروت، دار النهضة العربية ،١٩٨١م.

٣٥) أرسطو ، فن الشعر، ترجمة عبدا لرحمن بدوي ، ط٢،دار الثقافة، ١٩٧٣م.

٣٦) أسامة بن منقذ ، العصا ، تحقيق:حسن عباس-الهيئة المصرية العامة للكتاب،د.ط،د.ت.

٣٧) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار ،ط١، بيروت ، المكتب الإسلامي ،١٩٦٥م.

٣٨) أسامة بن منقذ ، لباب الآداب، تحقيق:أحمد محمد شاكر، مصر، الطبعة الرحمانية، ١٩٣٥م.

٣٩) أسامة بن منقذ الديوان تحقيق :أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، ، ط٢ ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٣م.

٤٠) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ، تحقيق: قاسم السامرائي ، ط١، الرياض ،دار الأصالة ، ١٩٨٧م.

٤١) أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر ، تحقيق: أحمد بدوي، ود.حامد عبدالمجيد، مصر القاهرة ، شركة ومطبعة مصطفى الحلبي ، ١٣٨٠هـ.

٤٢) أسعد زورق، موسوعة علم النفس، ط٢، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧م.

٤٣) آسل آبر كرومبي ، قواعد النقد الأدبي ، ترجمة: محمد عوض محمد ،ط٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤٤) إسماعيل جبرائيل العيسى،نقض أصول الشعر الحر دراسة نقدية في العروض وأوزان الشعر الحر، ط١، الأردن ،دار الزمان ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤٥) الإمام البخاري أبي عبدالله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، ضبطه ورقمه مصطفى ديب البغا، ط٥ ، دمشق ، دار ابن كثير ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٤٦) الإمام الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي ، شرح القصائد العشر، ضبطه وصححه عبد السلام الحوفي، ط٢ ،بيروت لبنان، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤٧) إنعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، بيروت،دار الرائد العربي، ١٩٧٩م.

٤٨) أنور به ميكيل، الإسلام وحضاراته ،ترجمة زينب عبدالعزيز، مراجعة كمال الدين الحناوي، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، د.ط ،د.ت.

٤٩) بهجت عبد العفور الحديثي، دراسات نقدية في الشعر العربي ، المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٤م.

٥٠) جابر أحمد عصفور ،الصورة ،لفنية في التراث النقدي والبلاغي ، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤م.

٥١) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، مطبعة الهلال مصر، ١٩١٣م.

٥٢) جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، بيروت ،دار صادر ، د.ط،د.ت .

٥٣) الجوهري ، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق:أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢،بيروت ،دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.

٥٤) حسن إبراهيم حسن ،تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م.

٥٥) الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر دار المعارف ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

٥٦) حسن حسين أبو الهيجا ، شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ،. د.ط،د.ت

٥٧) حسن طبل ،المعنى الشعري في التراث النقدي، ط٢،القاهرة،دار الفكر العربي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٥٨) حسن عباس ،أسامة بن منقذ حياته وشعره ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.ط،د.ت

٥٩) حلمي إبراهيم عبد الفتاح الكيلاني، الغربة في شعر أسامة بن منقذ، مؤتة للبحوث والدراسات، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٦٠) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي د.ط،د.ت.

٦١) الحنفي: محمد بن أحمد بن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق: محمد مصطفى، ط٢ ، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

٦٢) خالد الزواوي، تطور الصورة في الشعر الجاهلي، ط١،الإسكندرية مؤسسة حورس الدولية ،د.ت.

٦٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين: تحقيق:مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، دار الرشيد للنشر ،١٩٨١م.

٦٤) خير الدين الزركلي، الأعلام ، ط٥ ، بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٨٨م.

٦٥) الذهبي: الحافظ أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء: ، حقق الجزء الحادي والعشرين بشار عواد، والدكتور محي هلال السرحان، ط١ بيروت، مؤسسة الرسالة، ، ١٩٨٤م.

٦٦) الزبيدي: مرتضى محمد بن محمد بن عبد الرزاق ، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١ مصر ،المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦هـ.

٦٧) زكريا القزويني ،عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ، تحقيق: فاروق سعد، ط١ بيروت، دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠١هـ.

٦٨) السباعي بيومي، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،د.ط، د.ت.

٦٩) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، ط٢ ،بيروت لبنان، دار الثقافة، ، ١٩٨١م.

٧٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياحي، ط٤ ،القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٧م.

٧١) سليمان البستاني ، مقدمة تعريب إلياذة هوميروس ، بيروت ، دار إحياء التراث ،د.ط،د.ت

٧٢) الشريف الجرجاني ،التعريفات، ، تحقيق وتعليق:عبد الرحمن عميرة، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٧م.

٧٣) شكري محمد عياد، موسيقى الشعر العربي، ط٢ القاهرة، دار المعرفة ، ١٩٧٨م.

٧٤) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات(الشام) ، ط٢،دار المعارف،د.ت.

٧٥) شوقي ضيف ،في التراث والشعر واللغة ، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٨٧م.

٧٦) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مصر،القاهرة ، ١٩٧٣م.

٧٧) الطغرائي أبي إسماعيل الحسين بن علي ، الديوان ، تحقيق :علي جواد الطاهر، ويحي الجبوري، ط٣ ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٨٣م.

٧٨) طه أبو كريشة، الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي ،ط١ ، القاهرة، دار التوفيقية، ١٣٩٨هـ.

٧٩) عامر بن الطفيل،الديوان ، رواية:أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، بيروت، دار صادر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٨٠) عباس محمود العقاد ، أسامة بن منقذ، ،مجلة العربي، العدد الثاني، جماد الآخرة، مصر ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

٨١) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، ط١،جدة، دار المدني، ١٤٣١هـ.

٨٢) عبد الحميد جيدة ،الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، بيروت، مؤسسة نوفل ، لبنان، د.ت.د.ط

٨٣) عبد الرحمن محمد القعود ، الوضوح والغموض في الشعر العربي القديم ، ط١ الرياض، مطابع الفرزدق ،١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٨٤) عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات، ط٢، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٧٢م.

٨٥) عبد القاهر الجرجاني الرسالة الشافعية (ضمن كتاب دلائل الإعجاز) ، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، ١٩٨٤م.

٨٦) عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر، دار المدني، ١٩٨٤م.
٨٧) عبد الله الطيب، المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها، ط٢ ، الخرطوم ،دار الفكر، ١٩٧٠م.
٨٨) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ، ط٦ ،مكتبة الآداب ، ١٩٨١م.
٨٩) عبد المنعم خفاجي ،الشعر الجاهلي، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ،١٩٨٦م.
٩٠) عبدا لجليل حسن عبد المهدي ، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، ط١، عمان،مكتبة الأقصى ، ١٣٩٧هـ.
٩١) عبدا لعزيز عتيق، في النقد الأدبي، ط٢، ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م.
٩٢) عبدالرحمن بن خلدون ،تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة سهيل ذكار، ط٢، بيروت لبنان، دار الفكر، ١٩٨٨م.
٩٣) عبدالله إبراهيم يوسف الزهراني ،أسامة بن منقذ والتراث الشعري (دارسة في التأثير الشعري) ،ط١، منشورات نادي الباحة الأدبي، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
٩٤) عدنان حسين قاسم ،التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية ، مدينة نصر، الدار العربية للنشر ١٤٢١هـ.
٩٥) عدنان حسين قاسم لغة الشعر العربي ، ط١، مدينة نصر ، الدار العربية للنشر، ٢٠٠٦م.
٩٦) عروة بن الورد ،الديوان ، شرح ابن السكيت،تحقيق:عبد المعين الملوحي،مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ط.د.ت .
٩٧) عز الدين علي السيد، التكرير بين المثير والتأثير، ط١، القاهرة ،دار الطباعة المحمدية ، د.ت.
٩٨) علي أحمد علام شعراء فرسان تحث راية الإسلام((تاريخ وظواهر فنية)) ، ط١،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠١م.
٩٩) علي بن عبدالعزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ،ط٣،دار إحياء الكتب العربية، د . ت.
١٠٠) علي عبد الحليم محمود، النصوص الأدبية، ، ط٢، الرياض، مكتبات عكاظ، ١٤٠٣هـ.

١٠١) العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق: شكري فيصل، دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

١٠٢) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، ط١ ، بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٣م.

١٠٣) عمر فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، ط٥ ،لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٩م.

١٠٤) عمر موسى باشا ،أدب الدول المتتابعة(عصر الزنكيين والأيوبيين والممالك) ، دار الفكر الحديث،د.ط،د.ت.

١٠٥) عنترة بن شداد ، الديوان ، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي ،طبعة المكتب الإسلامي الثانية، ١٤٣٠هـ.

١٠٦) فاخر عاقل ، أصول علم النفس وتطبيقاته، ط ٢، بيروت ،دار الملايين ، ١٩٨٤م.

١٠٧) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة يعقوب بكر، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

١٠٨) كامل سلامة الدقس، وصف الخيل في الشعر الجاهلي، الكويت، دار الكتب الثقافية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٠٩) كعب بن زهير، الديوان ،شرح أبي سعيد السكري، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠م.

١١٠) كمال أبي مصلح ، الكامل في النقد الأدبي، ط٣، بيروت ، المكتبة الحديثة، ١٩٦٧م.

١١١) كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل ذكار، ط١ ،دمشق ، دار الكتاب العربي، ، ١٩٩٧م.

١١٢) لطفي حيدر محاولات في فهم الأدب ، لبنان، ط٢، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٤م.

١١٣) محمد الصادق عفيفي، النقد التطبيقي والموازنات، القاهرة، مكتبة الجانحي ،١٣٩٨هـ.

١١٤) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق وتعليق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦م.

١١٥) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، د. ت.

١١٦) محمد راغب الطباخ الحلبي،أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ،تعليق: محمد كمال ، ط ٢، حلب سورية، دار القلم العربي، ، ١٩٨٨م.

١١٧) محمد زغلول سلام ،تاريخ النقد الأدبي حتى القرن الرابع الهجري، ،الإسكندرية، منشأة المعارف، ، د.ط ، د.ت.

١١٨) محمد عبد الرحمن شعيب ، دراسات في النقد الأدبي الحديث ، د.ط،د.ت

١١٩) محمد علي الهرفي، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، ، دار المعالم الثقافية، د. ط، د. ت.

١٢٠) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة،١٩٩٧م.

١٢١) محمود عسران ، موسيقى الشعر، الإسكندرية، مكتبة بستان المعرفة، ٢٠٠٧م.

١٢٢) مسعد بن عيد العطوي ،الاتجاهات الفنية في الشعر إبَّان الحروب الصليبية ، ط١ الرياض مكتبة التوبة، ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

١٢٣)مصطفى عبد اللطيف السحرتي ،الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، ط٢، جدة ، تهامة للنشر والمكاتب، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

١٢٤) مطاع الصفدي، وإيليا حاوي، موسوعة الشعر العربي، بيروت، لبنان،شركة خياط للكتب والنشر، ١٩٧٤م.

١٢٥) معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت،دار صادر ،١٩٨٤م.

١٢٦) وليد قصاب ، دراسات في النقد الأدبي ، ط١، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

١٢٧) ياقوت الحموي معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب، ط١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية ، ١٩٩١م.